أفرام عيسى يوسف

ملحمة دجلة والفرات



ترجمه عن الفرنسية و قدم له:

د. على نجيب إبراهيم



ملحمة دِجْلة والفرات

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - شارع گولان - اربيل- كُردستان العراق

أفرام عيسى يوسف

ملحمة دِجْلة والفرات

ترجمه عن الفرنسية وقدَّم له:

د. علي نجيب إبراهيم

اسم الكتاب: ملحمة دِجْلة والفُرات
تأليف: أفرام عيسى يوسف
ترجمه: علي نجيب إبراهيم
من منشورات ئاراس، رقم: ٥٧١
الإخراج الفني: سَنكر عبدالقادر عثمان
غلاف: حميد آزمودة
التصحيح: أُميد احمد البناء
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الثانية – ٢٠٠٧
رقم الإيداع في المكتبة العامة – اربيل: ٢٠٠٧/٤٤٤

الإهداء

إلى روح أختي الراحلة

صديقة

التي تعلّمت منها كثيراً من معاني

الأصالة والصبر

علي

مقدمة

صدر كتاب ملحمة دجلة والفرات عن دار "لارماتان" L'HARMTTAN الفرنسية في الشهر الثاني من عام ١٩٩٩. وما يزال ـ منذ صدوره حتى اليوم ـ يثير فضول القراء، والصحفيين، والدارسين، إذ كتبت عنه صحف ومجلات عربية وفرنسية، كـ(الاهرام الدولي، ونداء الرافدين، وحمورابي، ومجلة الكاسوار الفصلية الفرنسية)، وغيرها. حتى إن بعض النقاد الفرنسيين عدّه من أهم الكتب التي تناولت حضارة بلاد الرافدين العريقة التي كانت فتحاً للتاريخ نهضت به المدن السومرية، والآكادية، والبابلية، والآشورية. وطبعها قادة كبار بطابعهم المتميز، مثل الملك جلجامش، وسرجون الآكادي، وحمورابي، وآشور بانيبال. ولاشك ان قراءة الكتاب تقف على سر الانجذاب إليه على نحوٍ أفضل. ولكي يعرف القارئ العربي هذا السر، ينبغي ان يكون النص بين يَديهِ باللغة العربية، مما دفعنا الى ترجمة، او بالأحرى الى وَصْلِه بأصله، نظراً الى ان مؤلفه الدكتور أفرام عيسى يوسف من أصل عراقي.

إلا أننا وجدنا حافزاً آخر على هذه الترجمة، يتصل بوجهة نظر نقدية يحسن بنا ان نوضحها لأنها تصب في مجرى النقاش الدائر حالياً عن حدود الأجناس الأدبية المختلفة. ذلك ان ما يعلنه أسلوب معرفية في الشكل السردي، وأبرزها المضمون التاريخي الذي يتراءى من خلال نغمةٍ عاطفيةٍ يشوبها إحساس عارم بالأوابد الموصوفة. ومن ثم نجد ان أسلوباً كهذا يعكس ظاهرةً آخذةً في الاتساع وسط المشتغلين في تخصصات لا تجدي معها لغة الانطباعات الذاتية. ففي السنتين الأخيرتين، ظهر بعد

ملحمة دجلة والفرات كتابان مشابهان له أسلوباً ومضموناً: صدر الأول عن دار "نجمة الجنوب" في الشهر السادس من سنة ١٩٩٩، بعنوان «همسات من رماد»، والثاني عن دار "لارماتان"، في شهر أذار من العام ٢٠٠٠ بعنوان «سورية، رحلة في ذاتها» ويبدو القاسم المشترك بين الكتب الثلاثة في نقطتين:

١- استناد السرد على تخصص المؤلفين، فالدكتور أفرام استاذ الحضارات القديمة في جامعة السوربون (باريس الثامنة)، والسيدة فرانسواز كلواريك (FranÇoise Cloarec) مؤلفة كتاب سورية، رحلة في ذاتها طبيبة متخصصة في التحليل النفسي. أما مؤلفة همسات من رماد فأمرها طريف للغاية وذو دلالة: لقد نشرت كتابها باسم كاترين إيغلي (Cathreine Egly) وهو اسم مستعار استخدمته المؤلفة لتتمكن من نشر محاولتها بصورة حكائية روائية. لأنها لو وضعت اسمها الحقيقي فسوف تواجه توبيخات زملائها علماء الآثار الذين يعملون معها في سورية. فللآثار قوانينها الدقيقة التي لا يليق بمن اختارها ان يرسل الخيال في نتائجها، فيحولها بذلك الى طبيعة غريبة عنها. ولما حاولنا ان نكلفها بإلقاء محاضرة في المركز الثقافي العربي السوري في باريس، تتحدث فيها عن تجربتها مع كتابة الرواية، انتصبَتْ امامنا مشكلة الاسم الحقيقي. فلو أرسلنا الدعوات على اساس اسمها المستعار، لأنفضح سرها، فضلاً عن ان اسماً مجهولاً لن يلاقي الاحتفال المطلوب بالمحاضرة. ألا يذكرنا ذلك بمن كانوا يستعيبون على انفسهم كتابة الرواية حين كانت في أول عهدها؟!

٢- وحدة الموضوع البادية في الرحلة الى المنطقة ذاتها تقريباً (أي الى بلاد الرافدين ومحيطها في بلاد الشام). فالسيدة إيغلي تكتب قصة

"زمري ليم" آخر ملوك مملكة ماري على ضفاف الفرات (التي تشكل آثارها الباقية ما يعرف الآن بـ "تل الحريري"). والسيدة كلواريك تجوب أنحاء شمال سورية منطلقة من قلعة حلب الى المدن السبع المنسية التي اكتشفها عالم الآثار الفرنسي جورج تات، وتصل الى تل الحريري على الحدود العراقية، ثم تمضي الى المواقع الأثرية الأخرى. والدكتور أفرام يجول بنا في عواصم ازدهار بلاد الرافدين، مستوفياً كل مكانٍ حقه في إبانة دوره التاريخي، وفي وصفه ايضاً. وفي هذا المنحى تظهر خبرة الرؤية، والتفاعل الشعوري ـ والتجسيد الحي لكل ما هو ماثل امام العين، او متدفق من الذاكرة المكانية المحيطة بمرابع الطفولة والشباب إحاطتها بموطن أجداد عاشوا فيها قبل أربعة آلاف عام.

على ان ما قد يلوح في الذهن من تساؤل، يحُرض على الاستدراك الآتي: أليس في هذا الضرب من الكتابة ملامح من أدب الرحلات، والسيرة الذاتية، والمذكرات في آنٍ واحد؟ أو ليست خصائصه العامة متضمنة في القصص والروايات المستقاة من الاسطورة والتاريخ، كقصة الشاب البابلي "زاديغ" التي كتبها فولتير سنة ١٧٤٧، وقصته أميرة بابل، او كرواية (المومياء) التي كتبها تيوفيل غوتييه عام ١٨٥٨، وفيها يستوحي تاريخ مصر الفرعونية، ربما كانت في الظاهرة التي تحدثنا عنها ظلال من فنون أدبية متنوعة، لكنها تشكل في جوهرها تركيباً خاصاً يميزها. وسوف يلمس القارئ في ملحمة دجلة والفرات اللغة النابضة الأدنى الى المناجاة بين روح الكاتب، و روح بلاد الرافدين الضاربة جذورها في أعماقه، يراها بعيدة وقريبة، غامضة وأليفة، وما كانت رؤيته لها لتداني رؤية الغربيين الذين يبحثون عن "شرقهم" مستندين دوماً على الكتاب المقدس، والإغريق،

والرومان. لأن زرقة سماواتهم ـ كما يقول الكاتب في مطلع الفصل الأخير من كتابه ـ لا تخصه وهو إنما يتأمل بلاد الرافدين بعيني الابن، والوريث الشرعي.

إنها ـ باختصار ـ كتابة بلونٍ جديد يرفد ألوان الأدب واجناسه، وقد يعطي لفعل القراءة دفعاً قوياً يُولد التفاعل الأمثل بين النصوص، وبالتالي بين الأذواق الجمالية عن الاكتفاء. وكم نتمنى ان تستجيب ترجمتنا، لغةً وأسلوباً لهذه الغاية، فتتهيأ للقارئ العربي المتعة التي يُيَسرها النص الفرنسي بسلاسة وحسن أداء.

د. علي نجيب إبراهيم
باريس في ١٥/ ٩/ ٢٠٠٠
أفرام عيسى يوسف
أستاذ جامعي

إنه لشعور غريب ان نعكف على عصر انقضى وكأنه غارق بكامل ثقلهِ في الألماس، على حين أننا لم نلامس بعد نهاية اليوم الذي كان هذا العصر صباحة.

رونية شار

١

التوجه صوب دجلة والفرات

في البدء كان دجلة والفرات، نهران عملاقان بأنفاس رطبة، وصُلبين قويين، ووشاحهما بلون الزمن. ينحدران ببهاء من جبال طوروس، ومن هضاب أرمينيا العالية، يعبران مساحات شاسعة، ويتعانقان في منخفض بلاد الرافدين قبل ان يصبا في الخليج.

تكون البسمة او الزبد على الشفاه، بحسب مزاج اللحظة. إنهما يعبران، في جريانهما، عن هيامهما بالأعشاب والأشجار، والآجر والحجارة. كما يجذبان الناس ويفتننانهم. هذان النهران المبرقعان بالنور والظلال، والحاملان خصباً أمطاراً وفيضانات، كانا ـ بمياههما العذبة المسكرة ـ ينابيع حياة، وشرايين، وسبُلاً، وعطاءً وانصباباً.

عام ١٩٨٠ رجعت الى بلادي المجبولة من الطمي والفخار، المعمورة بين النهرين، رجعت الى العراق. كنت عائداً من فرنسا حيث دَرَستُ الفلسفة وحضارات الشعوب.

كانت دراستي فترة طويلة من العمل والحماسة. في مدينة "نيس"، في غرفتي الصغيرة، غرفة الطالب، كنت عند الفجر أصغي الى الحمائم تزفر فوق الأسطحة شجوها العذب الرتيب. ولطالما أيقضت هذه السجعات ذكريات شبابي. إذ كنت أرى من جديد شمال العراق، وجباله الوامضة، وقراه الساخنة، ووادیه الزاهر، كنت أراه خافقاً بالأناشيد، كما كنت أرى نهر دجلة وما يرسم من إلتواءات جليلة. أما الجواميس فكانت ـ ككتل من الحجارة الرمادية الضخمة العائدة الى الزمن الاسطوري ـ تتحرك متباطئة

فوق ضفافه الضاحكة المطرزة بالعليق وحقول البطيخ. ثمة الصفصاف الباكي يحمحم، وأشجار النخيل الرشيقة تتبختر، تتراقص ظلالها على أمواج الضوء المرتعشة.

في لحظات الحنين، لم يكن النهر يبارح مخيلتي. كانت موسيقاه المرنة تنهمر في الظلام، ترن طويلاً في أذني وفي القلب. فأغوص فيها كما لو أنني في حلم...

عدتُ إذاً الى البلد. لاقيت بمحبة أهلي وأصدقائي. كانوا جميعاً قد غادروا قريتهم "سناط" الجاثمة في جبال كردستان، وحط بهم المقام في قلب بغداد، في حي "عقد النصارى" حيث كانوا يعيشون حياة بسيطة متواضعة.

بعد ما كان من انسكاب بَوْحِ العودة إلى أحضان أهلي، ذهبتُ أُلْقي التحية - من فوق أحد الجسور - على صديقي العريق نهر دجلة. كان يحتضن العاصمة بحبورٍ في صدره المرمري. نثرت عليه - كما باقة زهر - سبع سنواتٍ من الغربة والسعادة المخزونة، كانت هي وحدها الهدّية التي أمكنني تقديمها إليه.

كانت بغداد تنتظرني انتظار صديقة مُفعمةٍ حيوية وحمية، تسور مزهوةً نطاقها الشجري بالحدائق الكبيرة والصغيرة. راحت تقودني في قلب أحيائها القديمة عاجة بالنشاط مزركشة بالظل والنور في شارع الرشيد، كانت الأبنية القرميدية تُشرف على قناطر السوق القديمة، حيث تتكدس الحصائر والسجاجيد المرقشة، وقطع القماش بألوانها المتعددة، والنحاسيات اللامعة تتوهج كالشموس. كان الليل قد هبط حين مررت في شارع أبي نواس الذي يحاذي الضفة اليسرى للنهر، محوطاً بالحانات الريفية، والمواخير، تغمره رائحة الورود، والشاي، والبهارات والسمك المقلي.

اتخذت مكاناً في أحد هذه المقاهي، ورحت أرشف فنجان قهوة تركيّة (رائعاً مُراً ومركزاً). ماجت امام عيني صورة قوية خرجت مباشرةً من قراءاتي عن ولادة مدينة بغداد.

أسس هـذه المديـنـة المدَورة سنـة ٧٦٢، الخليـفـة المشهـور أبـو جـعـفـر المنصور. في نهاية القرن، تم تسويرها بثلاثة أسوار، وباتت مزودة بأربعة أبـواب كـان بـإمكـان فـرسان يـرفعون ألويـةً ان يمروا تحتـهـا. وفـي مـركـز المدينة، وسط حديقة عامة مخضوضرة تستحم بالسواقي، ينتصب الجامع وقصر العجائب.

عرفت بغداد تألقها الأعظم في عهدي هارون الرشيد والمأمون، اي في عهد بَطَلي حكايات كتاب ألف ليلة وليلة.

كانت بغداد حينئذٍ كما يصفها كتاب «ألف ليلة وليلة» مدينة السلام، وموطن ضروب السعادة كلها، ومقام اللذائذ، وروضة الروح.

بقيت بعض الصروح فقط، بعد ترميمها جزئياً، تشهد على العصر العباسى الزاهر، كالقصر المشهور الذي بناه الخليفة الناصر (١١٨٠–١٢٢٥)، بحجراته الموزعة على طابقين، وأقواسه الجميلة، ومقرنصاته القرميدية. ومما بقي "المستنصرية" او مدرسة الحقوق التي استغرق أمير المؤمنين المستنصر باللّه ست سنوات في بنائها قبل ان يخلع عليها اسمه.

عندما أشرق اليوم التالي، سلكت طريق تلك المدرسة الواقعة على الضفة الشرقية لدجلة. ولما وصلت إليها شرعتُ أتأمل معجباً ببوابتها المزيّنة بكتابةٍ كوفية كان العرب يستخدمونها قبل القرن العاشر.

وها هي إيواناته المكوَنة من قاعات واسعة، تنفتح على ساحة فسيحة فيها يتنزه طلاب بوجوه لونها كالخبز الأسمر. كنت مثلهم حساساً للفكر الذي يُعشش في هذه الأمكنة، حيث كان صقل الروح مشرفاً طيلة عدة قرون.

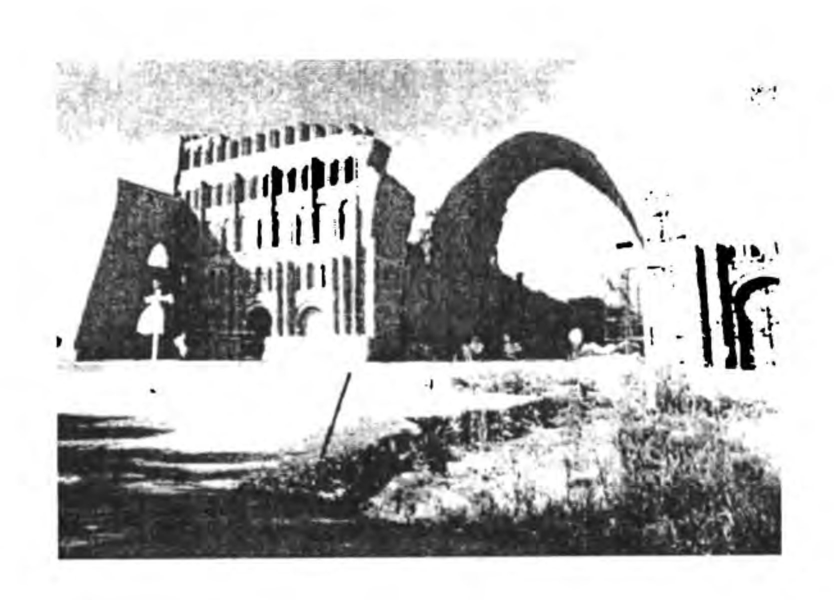
عصر النهار ركبت حافلة متوجهاً الى الكرخ، على الطرف الآخر من النهر. كنت متلهفاً لزيارة واحد من أجمل متاحف الشرق، الذي يحمل سياح الدنيا كلها على أجنحة الحلم. رأيته عمارة حديثة بابُها كبير يعلوه عقد من قرميد مرصع على الطراز الآشوري الحديث. بالإضافة الى ذلك اكتشفتُ فيه مكتبة ثرية تضم مؤلفات بعدة لغات، ومخطوطات عجيبة، فهو يعرض للزائرين مجموعات آسرة من المكتشفات التي تم العثور عليها أثناء التنقيبات الأثرية. إنه لشاهد على وجود شعوب شتى، وثقافاتٍ زاهرة في بلاد الرافدين منذ ما قبل التاريخ.

في القاعة المخصّصة للسومريين والآكاديين، كنت أُطيل الوقوف امام الخزانات الزجاجية اللامعة المضاءة ببراعة. داخلها كانت تهجع أوان، وأختام أسطوانية، وأسلحة وقيثارات، ومنحوتات رشيقة. غُصت في الأثريات القديمة وكأنني أغوص في عمق الماء الساكن لمرآة كادت تعكس وجهي الحقيقي.

قلت لنفسي، هكذا شيّدت سومر وآكاد ـ قبل اليونان وروما ـ في قلب الشرق، أي في الوادي الواقع بين دجلة والفرات، حضارة باهرة استمرت عدة قرون. كانت هذه الحضارة تنتظرني انتظار أم، لتضع في إصبعي خاتم إرثها الثمين من الذهب، والعقيق الأحمر، واللازورد.

إنها حضارة الصلصال والقرميد، والمعابد والقصور، وحضارة الكتابة ايضاً: أغنيات، وقصائد ، وملاحم.

إنها كذلك حضارة الرؤية المحوطة بالحمرة الداكنة، المحمّلة بالصلوات. وهي ـ لأنها رائعة وفريدة ـ تنير التماثيل الصغيرة للمُصلين، التي تمّ اكتشافها في أساسات المعابد. تزيح النقاب إزاحة طفيفة عن وجوههم الثابتة، البادية وكأنها غائصة في الوجد. كانت رؤية تجاوز الآفاق كافةً، وتمضي الى اللانهاية.



٢

اكتشاف السومريين

ذات مساء دعاني مُعلمان هما سلام ونيسان الى العشاء في مطعم مشهور يقع في "خان مرجان" القديم. بناؤه دائري مُزين بقناطر قرميدية تنيره كوىً صغيرة. إذ كان في الماضي خاناً للقوافل، ومكان صرافة، وسوقاً. تذوقت فيه على أنغام الموسيقى أفضل أطباق المطبخ العراقي: أصناف الكباب، ولحم الخروف المشوي و "الدولما" أي الخضار المحشية.

بعد الطعام، تحدث صديقاي في موضوعات متنوعة: في السياسة، والأدب والفن. وثم عادا يتحدثان في أمر الحضارات التي كنت قد درستها في فرنسا، وسألاني:

– في رأيك، ما الدور الذي تأخذه حضارة بلاد الرافدين القديمة والحديثة بين هذه الحضارات؟ ولما أدهشني السؤال، فكرت ثلاث دقائق قبل ان أجيب:

– حالياً، يبدو لي أننا نعلي على نحوٍ خاص شأن جمال الثقافة العربية التي نقلتها اللغة العربية. ألسنا – والحال هذه – أشبه بأسياد قصر عظيم يعيشون في حجرة او في حجرتين منه، الحجرة الذهبية للعصر العباسي، والحجرة الحديثة؟ والقاعات الأخرى تحتوي كنوزاً أقدم من الأخريين كثيراً، لكنهم لا يدخلونها أبداً.

ويوافقني سلام الرأي قائلاً: صورة جميلة. وعلى الرغم من غرورنا، فنحن نجهل تاريخنا. ونظرتنا إليه قاصرة. ثم إننا –بحكم افتقاد الماضي– لسنا أكثر من ظلال.

– وتنهد نيسان قائلاً: لقد خسفت الحضارات القديمة كما تخسف الأقمار.

– رددتُ عليه بالقول: لا، يا صديقي، إنك تُبالغ. هذه الحضارات لم تمُت. والعراق الحالي، بوصفه وريث تقليد عريق، يظل رمزاً لها. إنها أرض الرافدين ذاتها بجبالها المكللة بالثلج، وهضابها، وشلالاتها، وأنهارها، وسهلها الخصب الفسيح حيث تهبُ ريح الماضي حاملةً إمتلاء الحياة.

كنت مرتاحاً في جلستي، فأخذتُ جرعة شاي، وصَمَتُّ عدة لحظات، ثم استأنفت كلامي: أنتما تعلمان ان بلاد الرافدين شهدت خلال آلاف السنين أكثر من نكبة. لكنها كافحت للتخلص من الظلمات والطوفان. فراحت شموسها تسطع واحدة بعد أخرى. وشيدت مُدُنها أساطيل تلمع كأنها جزر من الجمال. هذه البلاد مهد حضارة تنتمي الى فجرنا الروحي، لذا تمتلكني الرغبة في ان أعرفها أكثر، وأنتما ألا ترغبان في ذلك؟

–هتف سلام ونيسان، وهما يهمان بالذهاب ـ طبعاً ونحن نرغب بمعرفتها ايضاً. وافترقنا عند عتبة المطعم.

تساءلت، وأنا أتمشى في شوارع بغداد الحية عائداً الى مسكني: أيها الأحمق لماذا تُعطي دروساً للآخرين؟ ألم تكن في مواقع الآثار القديمة، ألم تمر بها مرور فراشةٍ من دون ان ترى شيئاً؟ حسناً، عُد إليها، افتح عينيك! دع نظرك يتجول فوق الخرائب النائمة! واكشف عن الثروات الأثرية والفنية لتراثك! داعب الأساطير والخرافات، واستنشق رحيق الأيام الغابرة! أنت لم تعد ترغب بنزهة سياحية لا قيمة لها!

في الأيام اللاحقة ارتسم في ذهني مسار نهجٍ يقوم على جريان أحداث التاريخ، وعلى تسلسلها. فقررت ان أتبعه من دون إبطاء.

نزلت أولاً بأتجاه البصرة سالكاً طريق كوت التي تحاذي نهر دجلة متشابكة مع الاهوار الموجودة منذ أقدم الأزمنة. كانت النباتات المزهرة

تغطي السطح البكر للمياه الآهلة بالطيور، والأسماك، والأسل، وبعض الأعشاب المائية حيث كان ينساب أحياناً قارب مصنوع من القصب والقار. كان الهواء قد غدا أكثر رطوبة. ففي القرنة يتصل الفرات بدجلة وسط احتفال عريض، ويشكل معه شط العرب. وفي سافلة النهر تنتصب مدينة البصرة التي تخترقها الشوارع والقنوات. لذلك كانت بندقية الشرق. مررتُ أمام الشناشيل، وهي بيوت قديمة ذات شرفات خشبية. ومشيتُ بمحاذاة حدائق غنّاء كقصائد من ألوان وأصوات، مليئة بالأزهار والعصافير والورود الخلابة، والعرائش، وأشجار النخيل السامقة التي تداعب السماء كأنها ضمم من الريش. قمت بنزهة الى الميناء أراقب حركة الرافعات، وناقلات النفط العملاقة، والقوارب والسفن العربية بمقصوراتها الملونة بالأزرق الفستقي. زكمت أنفي رائحة الفلفل والتوابل التي كانت تعبق في ذلك الجو الخانق.

ما أشبه البصرة بسفينة كبيرة تستعد للإبحار، وعلى متنها أناس خيرون. نُقش في مقدمتها بحروفٍ عريضة اسم شخصية مشهورة في حكايات ألف ليلة وليلة: السندباد، ذلك البحّار المذهل المجازف الذي فتنتني مغامراته في صغري وأسرت خيالي. حتى إن احتذاءه دفعني الى مخاطرات عجيبة ليس في البحر الرهيب، بل في النهرين. كانت مدن قديمة عجيبة ما تزال زاهرة على ضفتيهما. اه! ما أصعب السفر إليها، إذ وجب علي بلوغ أقاصي العالم، وأبعد أمداءِ الزمن!

كان جناح الشمس كجناح الطائر الخرافي الذي يُسمى بـ "الرخ" يرفرف على تاريخ البصرة. فقد أسسها العرب في النصف الأول من القرن السابع. وسرعان ما غدت مشهورة بفضل مدرستها النحوية.

في القرن السادس عشر، قامت أسرة حاكمة صغيرة مسماة بـأسم "أفراسياب" ـ وهو واحد من الوجهاء المحليين ـ بفتح أبواب البصرة، ومياه

مينائها للتجار الإنكليز والهولنديين والبرتغاليين. فدخلت بواخرهم للتجارة في الخليج. وهكذا استقرت فيها شركة الهند الشرقية سنة ١٧٥٠.
وفي القرن التاسع عشر، نمت البصرة علاقاتها التجارية مع أوروبا وأمريكا. فشهدت بذلك تطوراً كبيراً.

وأسَّس الإنكليز والإيطاليون والفرنسيون وكالات تجارية استعمارية دائمة في بلاد الرافدين، كما فتحوا قنصليات، وأرسلوا بعثات تبشيرية. وعليه فقد سعت إرسالية الآباء الكرمليين والكبوشيين الى دعوة مسيحيي الكنيسة الشرقية ـ أي النساطرة ـ الى الانخراط في الكثلكة.

ان قنصلية متواضعة لمعت من بين تلك القنصليات، وذلك بفضل دبلوماسي فرنسي يُدعى إرنست شوكان دو سارزيك.

في عام ١٨٧٧، التحق دو سارزيك بعمله في البصرة. نائباً للقنصل. كان رجلاً كهلاً، أميل الى البدانة، تكسو وجهه النشيط لحية كثة. كان يرتدي دوماً لباساً أبيض، ويضع على رأسه قُبعة عريضة تقيه من أشعة الشمس القاتلة وكان ـ في بعض الأيام ـ يشد أربطة حذائه الطويل، ويمتطي صهوة حصانه، ماضياً خارج المدينة التي تسودها حرارة رطبة. كان يكتشف بساتين النخيل، والصحراء المجاورة، ويصطاد الطرائد والخنزير البري. فهل كان يشعر بأن رحلته لم تكتمل بعد؟

عرف هذا الدبلومسي ذات يوم ان أهل البلد عثروا على قطع من القرميد، وعلى أشكال أسطوانية، وأشياء أخرى في موقع تللو وهو مكان معين قريب من مدينة شطرة. ولما كان مولعاً بالحضارات القديمة، قام على الفور بزيارة الموقع. وما هو إلا ان نبش في أسفل أحد التلال المُصفرة، قطعة رائعة من تمثال ضخم بارز من تحت التراب. حتى خمَّن إثر ذلك ان الأرض قد تحضن كنوزاً أخرى، شاعراً بأنفاس الماضي تلامس روحه.

بعد حين، عاد "دو سارزيك" الى تللو وطلب من العمال ان يحفروا سطح التل، وبذلك أبان عن أركان أحد القصور، كما عثر في أساسات أحد الجدران على الجزء الآخر من التمثال.

لقد قاد نائب القنصل بين عامي ١٨٧٧ و١٩٠٠، بحماسة إحدى عشرة بعثة أثرية، حيث اكتشف ألواحاً طينية محفورة لكتابة قديمة، وجراراً، وآنية، والقطع السبع لـ(مسلة النسور) الموجودة حالياً في متحف اللوفر. تحكي هذه المسلة العائدة الى ٢٥٥٠ عام قبل الميلاد، قصة انتصار ملك بلاد الرافدين السفلى على سيد مدينة منافسة له.

وجمع نائب القنصل كذلك تماثيل منحوتة كالأولى في صخر الديوريت القاسي ذي اللون الأسود. هذه التماثيل تجسد رجلاً مربوعاً رقبته غليظة، وذقنه مربعة، وعيناه كبيرتان وديعتان، وهيئته جليلة هادئة. لقد كان ـ كما عرفنا لاحقاً ـ "آنماً" او أميراً اسمه "غوديا"، من المحتمل أنه عاش حوالي عام ٢١٥٠. وتبين ان تللو تطابقت مع مدينة جيرسو القديمة في دولة لاغاش.

حمل دو سارزيك الى باريس حصاده من اللقى الفنية، وباعها لمتحف اللوفر بمبلغ كبير. فهل كان يُدرك أهمية اكتشافه الذي لا يقدر بثمن؟ لقد حمل الى فرنسا، والى العالم كله أول اكتشاف عن حضارة مندثرة هي أقدم من حضارتي بابل وآشور اللتين ورثتاها في بعض الجوانب. ولم يذكر هذه الحضارة لا كتاب العهد القديم ولا الإغريق.

عاجلاً، وصل علماء الآثار ـ وقد أثارهم الاكتشاف ـ الى المواقع الأثرية الفنية الخصبة في جنوب العراق. فنبشوا معابد، وقصوراً، ومكتبات. وهكذا بدأ المتخصصون في علم اللغة وفقهها، في المتاحف والجماعات، يدرسون بحميةٍ الرقم الفخارية التي حُفرت عليها علامات مجهولة. يالها من

مغامرة فكرية مؤثرة! إلا أنه بفضل جهودهم الدائبة، برزت من ضباب الزمن الغابر، الصورة غير الواضحة بعدُ لشعبٍ ذي سحنة أصلية: رؤوس سوداء، وأجسام مربوعة، وعبقرية متينة، قوية ومنظمة. كان هذا الشعب يتكلم لغة معزولة قائمة على التركيب المزجي، أقدم بكثير من اللغة الآكادية، هي لغة الساميين القاطنين في مركز بلاد الرافدين. غير ان هذا الشعب لم يكن واضح الهوية تماماً. وكان لا بدّ من انتظار سنة ١٩٠٧ حتى يصل المتخصص في فقه اللغة الآشورية فرانسوا تيرو رانجان (١٨٧٢–١٩٤٤)، الذي ترجم الرقم التاريخية لملوك البلاد القدماء، ونشرها في كتابه النقوش السومرية والآكادية، مؤكداً وجود السومريين ولغتهم التي كان بعضهم يُعاند في إنكارها وإنكارهم.

فمن أين جاء السومريون؟ كان المتخصصون يظنون أنهم كانوا ـ منذ ما قبل التاريخ ـ مستقرين ومختلطين بشعوب أخرى ـ في السهل الأسمر الذي ينحدر ليصل الى الخليج. كان السومريون يعيشون ها هنا، قرب المستنقعات في ظل أشجار النخيل الطرية، وعبقِ أشجار الأسل. كانوا يبنون بيوتاً من الطين، ومن القرميد النيء، ويرتدون محازم ذات لُسينات من الصوف مشدودة على النطاق الذي يتدلى الى مستوى ربلة الساق. ويأكلون اللحم، والتمر، والتين، والخوخ، والعنب، والرمان بحبة اللامع، والزبدة، والعسل الأبيض. أما خمورهم فكانت جُعَة ونبيذاً.

يا لها من أسرار وأعاجيب. فقد أكدت الكتابات أنه كان محفوراً على الأسطوانات، والأشياء الأخرى المتنوعة، ان التاريخ بدأ مع السومريين. كانوا يبغون توسيع أراضيهم (التي كانت اصغر من هولندا الحالية) لتشمل آفاق العالم:

يا أرض سومر، أيتها البلاد العظيمة،
والأرض التي لا نهاية لها

يغلّفها نور خالد
يا واهبة القوة لشعوب الأرض كلها
من الشرق الى الغرب

(جان بوتيرو، حينما كان الآلهة يخلقون الإنسان، غاليمار ١٩٩٣، ص١٧١).

كان هذا الشعب قد بنى حضارة خصيبة، وطور الزراعة والرّيّ. وحوالي عام ٣٤٠٠ ق.م، اخترع المحراث، والدولاب، والعربة، ومخرطة الخزف، والقارب الشرعي، مما سمح بتوسيع التبادل التجاري الى حدود الخليج. وكان قد أوجد عدة تقنيات، كالبرشمة، واللحام، والدهان. وفي صياغة الذهب أوجد الترصيع بالأحجار الكريمة، وتحبيب الذهب. وأتقن فن عمارة القرميد العادي والمشوي، وشَيَّدَ صروحاً بأشكال جديدة: كالزافرات، والقبب بأنواعها.

بيد ان الاختراعين الأكثر حداثة لهؤلاء الروّاد، الاختراعين المتناغمين جداً مع نظام العالم، إنما هما الكتابة والمدينة. سوف أتحدث عن الاختراع الأول الذي بزغ كقوس قُزح، وذلك في فصل قادم. أما ظاهرة بناء المدن المعروفة جيداً في بلاد الرافدين فقد بدأت في الألف الرابع.

فعلى خلاف العبرانيين، لم يتخيل السومريون أبداً ان الجنة، في بداية الزمان، تشبه حديقة: بل كانت عندهم مدينة، ومسكن أساسي أول للإنسان، تم إحداثه قبل أي شيء. لقد كانوا يبحثون في المدينة عن الأمان، والتقدم، والأزدهار والسعادة. ومثلما كانوا يقطنونها، كانت تسكنهم وتحولهم شيئاً فشيئاً. وكانت تقودهم كما يقود الراعي قطيعه الى ميدان الحقوق والسلام.

في تلك الأيام القديمة، كانت مجموعة من المدن القوية تنشد في بلاد سومر كمدن إيردو، وأوروك، وأور، وجرصو، وسيبار، ونيبور وغيرها كثير.

هذه المدن الأسطورية التي بناها آلهة او أبطال، والتي يعود بناؤها أحياناً الى أسحق الأصول، كانت منابع للملاحم المنقولة شفاهياً في بادئ الأمر. مثلما كانت ـ بوصفها مدناً ـ مزارات، تلتمع باللازورد والذهب تحاور سادة السماء.

ولأنها بنات دجلة والفرات، كانت تجاوز الأسوار امتداداً. تبدو بخضرتها وخصوبتها الأخّاذة أشبه ما تكون بالوعول لحظة انطلاقها. فهي تعانق القوى الحية في الكون.

وهي الى ذلك نماذج لمدننا الشرقية... ففي تعرجات أزقتها تمشي البغال والحمير متثاقلة تحت أحمالها. كانت تمرّ أمام البيوت ذات الواجهات المموَّهة، والقياسات المتباينة، التي تتراكم حول المعبد. وأحياناً تُقضي الى ساحات مُشمسة، او الى أسواق زاهية عامرة بالحركة. وكان أصحابها يأتون ليُلقوا مع كل نوع من البضائع، رغباتهم وأحلامهم.

والآن، هيا نرد أبصارنا نحو بعض هذه الأسوار العالية، أماكن السلطة والمعرفة، والملاذ او الذكريات. لم تكن أية واحدة منها مدينتنا، ومع ذلك فهي جميعها تأسر أرواحنا وقلوبنا...





المأدبة السومرية - متحف لندن



صورة لحاكم مدينة - دولة لاغاش. من تللو، جنوب العراق.

من أيام السومريين. حوالي ٢١٠٠ ق.م

٣

أوروك، أرض البدايات

أوروك هي الأرض التي تتنفس فيها الروح... أرض البدايات الصعبة العجيبة. منها بدأ البشر بتعمير العالم وجعله أفضل. وفيها وُلِدت الكتابة، وأول القصص، والملاحم كملحمة جلجامش، ملك أوروك.

عصر يوم جميل من أيام شهر أيار، غادرت البصرة صاعداً نحو الشمال الغربي. توقفت في مدينة السماوة ـ وهي مدينة عربية صغيرة ـ لتناول العشاء. قضيت فيها الليل مكبباً تحت واحد من أغطيتها الجميلة ذات الألوان الفاقعة، نسجتها نساء البلد.

استيقظت قبل شروق الشمس، واجتزت نهر الفرات يغمرني شعور حادّ بأنني أجاوز حدوداً، ويممت وجهي شطر وركاء وهذا هو الاسم الحديث لأوروك.

كان لون الأرض أصفر ينساب الآن على طول الطريق غير المعبدة. كانت بعض العنزات والخراف تطوف على حواف الطريق، يقودها صبيٌ في مُقتبل العمر، يضع على رأسه كوفية. وبين مسافة وأخرى، كانت تظهر مزرعة محوطة بعدد قليل من أشجار النخيل التي تتمرى في مستنقع صغير. وعلى خط الأفق يبرز تل فخاري ضخم مظلم جاثم كالجمل في قلب العزلة. كانت السماء ما تزال ناعسة عندما وقفت بأرض أوروك الممتدة على مئات الهكتارات.

ان أمشي باتجاه أوروك، يعني أنني ذاهب لملاقاة الفجر بوميضه، ووعوده وشموسه الجديدة. تقدمت تحت سماء فسيحة، حُبلى بالأنوار

البيضاء. لم يكن ثمة، على مدّ النظر، أي كائن حيّ. صمت الحياة وحده هو الذي كان مهيمناً على المكان. سرت في تموجاته ماراً بالخنادق المليئة بالقرميد. وتتبعتُ اثار أساسات الأبنية القديمة حيث كانت تتصاعد رائحة الأزمنة الأولى. لقد تم تشييدها في قلب المدينة، في حي الإله إيانا حيث كانت تُعبد الإلهة إنانا، إذ كان قد أزيل عنها الركام بدءاً من سنة ١٩١٢ من قِبلْ علماء الآثار الألمان. فهؤلاء أعملوا فؤوسهم ومعاولهم في طبقات العصور المتلاحقة فبلغوا مستويات تاريخها الى عصر تل عُبيد حوالي ٤٥٠٠ قبل الميلاد. وبفضلهم استطاعت المدينة ان تعثر على ذكريات أصلها.

ربما كانت أوروك، بنت الفرات، او إيريش كما يسميها العهد القديم، أقدم مدينة في التاريخ. إذ أنها وُلدت تحت جناح الآلهة في نهاية الألف الخامسة او في بداية الألف التي تلتها.

بحكم ان القرية مشيّدة في سهل سبخي، بدأت تكبر كطفل يتلعثم بكلماته الأولى، ثم تحولت الى مدينة وليدة تتزين بألوان سيراميك قديم.

حوالي عام ٣٣٠٠ ق.م وفي حين كانت شعوب عديدة ما تزال تعيش مغامرات او في أكواخ، كانت أوروك تعيش عصر أول حضارة مدنية. فقد انتظمت في مدينة قوية متمثلة في ملك ـ كاهن، لا تحكمها عائلة او قبيلة وحسب، مثلما يُحكم المجتمع الزراعي، بل تحكمها صفوة دينية وسياسية وعسكرية تقوم بتحصيل الجبايات والضرائب. وهكذا كان في حوزتها الأموال اللازمة للقيام بالأشغال العامة، وبناء الصروح المدهشة التي لم تكن موجودة في القرية.

لكن الحياة داخل الجدران تغيّرت، إذ ابتكر السكان وسائل جديدة للاتصال، وأنظمة تضبط أشكال التبادل. وانبثق أول نفسٍ إبداعي في

أوروك، أول حمى، وأول انطلاق... في الساحات العامة راحت القيثارات والمزامير تغني بحبور استيقاظ الفكر الهادئ، وتطور الإنسان وتفتحه، وولادة مشروعاته ونضوجها، مع تَفتُّحِهِ على العالم.

رفعت رأسي: ها قد غدا وميض السماء الناصع أكثر كثافة، وكل شيء ينصهر فيه...

تسلقتُ أكمه، وأنا مصمم على أن أرى بعيني خيالي المعجزات التي أنجزها معماريّو أوروك. ألا إنهم أحياء في نظري على الرغم من أنني لا أعرفهم، حيث خلعوا على المحسوس شكلاً، وفجّروا من أحلامهم مدينة في مستوى حبهم. وهم ـ لكي تتجلى في عيون الناس جميعاً عبقريتهم ومقدرتهم، وثروتهم بأفضل صورة ـ واصلوا البحث، ووجدوا تقنيات غير معروفة، كقرميد الجص ومخالب التثبيت المصنوعة من الطين المشوي. إذ كان الحجر نادراً في تلك المنطقة، كما كان القرميد النيّئ شديد القتامة. كذلك زيّنوا الواجهات الضخمة لكثير من المعابد والأبنية الحكومية بالأطبار (الأعمدة النافرة من الجدران)، والكوى والأحياد (جدران بارزة في سور)، حيث يتناوب الظل والنور ووسط الطلاء الكثيف للجص الطري الذي يغطي الجدران الموحدة اللون، والأعمدة، غرسوا رؤوس آلاف المخاريط الصلصالية الملونة بالأحمر والأبيض والأسود على شكل مثلثات، ومعينات وشارات. وبذا كانت أوروك تتلألأ في السماء مثل فسيفساء فخمة...

كانت محاطة بسور أخضر، وبحدائق مكشوفة للندى الرائع. وكانت تُشع على بلاد سومر ذات الآفاق الرحبة المفتوحة.

وفي النهاية، عندما تحرر صناع أوروك من أعمالهم في الزراعة، والحصاد، وتربية المواشي، وهي أعمال كانت في الماضي ضرورية

لبقائهم، راحوا ينظرون الى العالم نظرة جديدة، واستطاعوا ان يُعبّروا عن عالمهم الداخلي وعن عصرهم. وفي غمرة انطلاقتهم الأولى اخترعوا الأختام الإسطوانية بإتقان واضح، مثلما صنعوا الجرار الفخارية والآنية، والتماثيل الصغيرة التي تطهّر بجمالها ورهافتها الأماكن التي توضع فيها. هؤلاء الرجال غدوا ـ بعد ان ارتعشت أيديهم طويلاً ـ ماهرين في التعامل مع المعدن والحجر. ومن ثم، فما كاد الفن يولد، حتى ساعد على تنامي التجارة مع الأصقاع البعيدة.

وفي نظري الرائعة الفنية الأكثر تألقاً في تلك الفترة، هي منحوتة سيدة أوروك المتمثلة في رأس امرأة، وقد تم العثور عليها في مرافق إيانا.

وبهذا أجدني متفقاً مع الكاتب الفرنسي مالرو الذي كتب بهذا الصدد:

"إن رأس سيدة أوروك هو قطعة من تلك القطع الأصلية التي تتحدى الشروح كلها، وتكتفي بفرض نفسها، بل إنها قمة من قمم العبقرية الإبداعية...".

كان من حظي أنني تأملت هذه المنحوتة في متحف بغداد قُبيل قيامي بهذه الرحلة في ذلك اليوم، دنوت من واجهة جذبني فيها رأس امرأة منحوت في فجر الألف الثالثة قبل الميلاد. وما بدا ان النحّات ـ المتمتع بحساسية عجيبة ـ ما كان يبحث عن صُنع الجمال، بل كان يبحث عن تجسيد النظام الكوني، الألهي، أكثر من بحثه عن تجسيد ذاتيته الخاصة.

قديماً كانت الضفائر المتموجة المغطاة بوريقات الذهب، تُشع في وجه المرأة رهافةً نبيلة، على الرغم من الألف الذي هدّمته السنون. على حين كانت العيون الواسعة المحشوة باللؤلؤ، والصدف، واللازورد، فارغة كالهوة، لكنها الهوّة المسكونة. وكان لهذه المرأة المجهولة نظرة تضيئ وجهها من الداخل، وتنسرب كنارٍ لا تريد ان تنطفئ، وتشع باتجاهي حيث

كنت واقفاً أمام الواجهة. اضطربتُ، وهاجني هبوب تساؤلاتي:

"هل كانت سيدة أوروك مجرد رغبة، وفكرة أم مجرد كائن من لحم ودم؟ وهل المرأة الخالدة بذاتها ـ سواء أكانت إلهةً أم ملكة أم مجرد كائنٍ فانٍ ـ هي من تهز بعض مواطن النفس السرية؟" لقد وصلت إليّ سيدة أوروك من عُمق البعيد القابع وراء قناعها.

إنها نظرة وشعلة انقشعت القرون التي تفصلني عنها في ثلاث ثوانٍ... فقبل لحظة كانت السيدة ما تزال تعيش. عطرها يضمخ أرض أوروك. كانت تمد يديها نحو المدينة التي سيدتها، لكي تباركها ورمال سومر تنساب من بين أصابعها...

أحسنتُ أنني اندفعت الى أقصى حدود الفجر... نزلت التل. وجازفت ـ ربما بدافع جاذبية خبيثة ـ متوجهاً الى الحيّ المقدس الاخر في أوروك، أيانا، الواقع على مسافة خمسمائةمتر تقريباً الى الجنوب الغربي. راح غبار أصفر يتطاير بين ثنايا ثيابي. فبدا لي ـ من دون أي ضيق ـ أنه غبار دافئ وحميم.

كانت ومضات لامعة بلون الزهر تغطي بياض السماء اللبني. بينما كانت الشمس ترشق أمام الغبار نبالاً من نار.

ثمة ضريح يرتفع شبحه الرمادي نحو السماء... ها هي درجات السُلم الوعر قليلاً، الذي يرتقي الطوابق بالية المعالم لمنصةٍ حوافها مائلة، هي أصل الزقورات، أي الأهرامات ذات الطوابق المتدرجة. قررت ان أتعلم الأسرار القديمة بعبقها الشفيق، فتسلقت بخطىً متقاربة مدرج المعبد المُطل على المنصة، شاعراً بخفة ذاتي. كانت أنغام الناي والقيثارات، والطبول ما تزال تنبعث في الدرجات المتآكلة. في الجزء غير المتآكل، كانت جدران هذا الصرح الصغير، المرتبطة على الأرجح بعبادة آنو إله السماء، تنتصب بارتفاع ثلاثة أمتار. أما بناء هذا الصرح فيعود تقريباً الى ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد. لم أجد صعوبة في تخيلّه حينما كان بكامل

أبَّهته لأن ذاكرتي احتفظت بمخطط العالم الألماني أ.هنريش، الذي كان قد أعاد بناءه عشية الحرب العالمية الثانية.

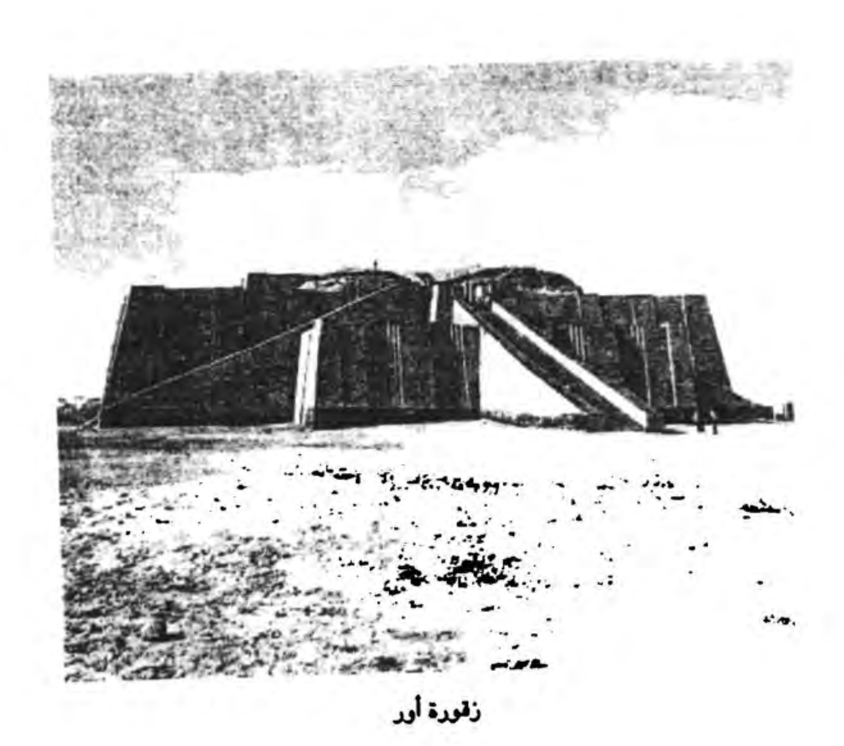
يتكون المعبد الأبيض من عدة غرف وقاعة واسعة مغطاة بطبقة من الجَصِّ الأبيض ومن هنا يأتي اسمه. هذه القاعة مؤثثة بطاولة، ومذبح على مرتفع يحمل آثار الحرق. بدا لي أنه ما يزال يُرسل دخانه، وان الهواء يعبق برائحة البخور والعطر. حتى إني شعرتُ في مخيلتي وفي ذاك الظلام، حضوراً لطيفاً لكهنة آنو ألم يقوموا بِحوار مع الآلهة كلّية القدرة التي تحمل للبشر الحياة الطويلة والغنى والخير؟

كان سحر الأماكن الخاص ينبعث فيَّ شيئاً فشيئاً. فانغمستُ في الصمت والتأمل. ولما بلغت مركز ذاتي المتماهي مع مركز العالم، عثرت على روحي السومرية.

وفي قلبي عمَّ الشعور بانبلاج فجر حكمة يصعب ان تبلغها مشاغل الإنسان المعاصر المزعجة. وما هذه الحكمة سوى احترامِ للطبيعة وإعجاب أمام جمالها، وهي التناغم المغمور بالحب والخصوبة، والقوى البدائية الكبرى، وأسرار الحياة، وما هي في النهاية إلا حاجة للاتصال بما لا يقبل الانقسام...

قبل ان أعود أدراجي، أجلتُ ناظري على الأراضي الخرساء الممتدة على عدة كيلومترات. وفي العزلة الأصلية تشمخ قمم وحشية تعفرها الشمس، وتنتصب تلال كبيرة غارقة في نومها العميق منذ آلاف السنين كتل لارسا في الشرق، وتل أور في الجنوب وغيرها. إنها نظرة وجيزة الى ما يشهد على مجد غابر، ذلك ان أوروك ـ كالسفن اشتدت عليها الأخطار ـ تعثرت وسط الموجات المزيدة في السهل المليء طمياً، بعد ان تراجع منها قَدُّ الحضارة السومرية.

لكن أوروك ستبقى في داخلي مثل صباح وضاء.



زقورة أور

٤

بلاد الرافدين، روضة الكتابة

في البدء الماء، والصلصال، وقصب السُكر. وكان الخطاب الشفهي الذي سبق اللغة المكتوبة بآلاف السنين. كان خطاباً يحمل في طياته قوة إبداعية وشعرية، ولكن الاحتفاظ به مستحيل استحالة الإحاطة بينبوعٍ حيّ.

تحكي الأسطورة ان سكان سومر ـ في عصر أوروك ـ تلقوا الكتابة والعلوم، والتقنيات، وتأسيس المدن، والقضاء، والثقافة، أي ـ باختصار ـ تلقوا جملة الحياة الحضارية هِبةً من كائنات أسطورية، نصفها على شكل إنسان، ونصفها الآخر على شكل سمكة. هذه الكائنات علّمت السومريين كيف يمثلون كلامهم الذي يصنع الأفكار، بوساطة علامات معينة، وكيف يبثّونه في المكان والزمان. ومن ثَمّ التمع قوسُ قزحٍ تلك الوحدة الجديدة بين الإنسان والعالم فوق نهري دجلة والفرات.

منذ نهاية الألف الرابعة، كانت أوروك ـ المدينة الغنية المزدهرة ـ قد نمّت علاقاتها التجارية مع البلدان المجاورة. وتولدت فيها مُجمعات يتزود منها التجار بالأخشاب والمعادن. وكانوا يطبقون أنظمة حسابية، ويستخدمون فِيشاً مصنوعة من الطين المشوي والعصيّ، والمكعبات، والأشكال المخروطية. يغلفونها بكُرات صغيرة، او بدوائر محفورة، حُفرت عليها كمية المنتوج ونوعيته. وفي حال الخصومة، كان بإمكانهم ان يُحطّموا هذه الأغلفة. وكانت هذه طريقة مُختصرة لحفظ العمليات الاقتصادية. فيما بعد صارت الكُرات أشكالاً مصفحة، ثم صُفيحات.

ظهرت أول الصُفيحات ـ وعددها خمسمائة او ستمائة ـ حوالي عام

٣٢٠٠ قبل الميلاد، تم اكتشافها في معابد أوروك القديمة، وهي أشكال رمزية ليست أكثر من مجرد رسوم.

لقد استخدم السومري قصبةً ليحُك ـ وأصابعه ترتعش ـ الصلصال الطري ورسم عليه سنبلةً، ونخلةً، وثوراً.. فوجدها مشرقةً بنور جديدٍ.

ومن جديد جرَّب يده وقلبه. وألف صورة وجَمَّلها لكي تصير رسوماً، ثم جُملاً مرسومةً، وجعلها تجسيداً للأفكار والأصوات، ليس للأشياء وحسب.

وقادت هذه المرحلة الإنسان السومري الى مرحلة ثانية. إذ أدخل في الصلصال اللّين قصبة مسطحة، حدّها مائل، وطبع عليه بسرعة علامات بارزة على شكل زوايا او مسامير، ومن هنا جاء اسم الكتابة المسمارية (من اللاتينية حيث إن لفظة "كينوس" تعني زاوية).

تُركب الكتابة المسمارية العلامات ـ الكلمات، مع العلامات المقطعية. وقد كُتبت بها أشياء أخرى غير العمليات الاقتصادية، واستخدمت دعائم مختلفة، ووصلت ـ في نهاية الألف الثالثة تقريباً ـ الى مرحلة قريبة من الكمال.

وتعاظمت الكتابة كالشجرة الفتية تدفع أغصانها رويداً رويداً في سائر اتجاهات المعرفة: الدين، والأسطورة، والأدب، والرياضيات، وعلم النبات، وعلم الحيوان. ومن تورقها وُلد التاريخ. وفي ظلها انتقل من حال الى حال كل من السومريين والآكاديين والبابليين والآشوريين وجيرانهم.

وبلغت الكتابة –مُنطلقةً كالسهم– غايتها المنشودة. فقدمت للإنسان وبنت مفهوماتٍ وأفكاراً ومباحث. ثبتت العاطفة، وحررت الخيال والعبقرية الفردية، وبنت الذاكرة. فهي تحتوي في بضعة أسطر على آلاف السنين. كما أنها روح الحضارة وضمان هويتها.

إن أوروك هي مسقط رأس عالمنا الذهني، ونظرتنا الى العالم، وسُلم قيمنا. أما الناسخون فينحدرون من طبقات عليا في المجتمع. تعلموا في

مدارس تُعرف باسم "بيوت الرُقم"، كانت منتشرة في بلاد سومر. كانوا يقضون فيها عدة سنوات حتى يكتسبوا "فطنة واسعة ومعرفة حكيمة". وكانوا ـ كالمغامرين ـ يُبحرون ـ على امتداد الأيام ـ في بحرٍ من العلامات، فيصلون أرض تلك القارة المجهولة الكتابة.

هناك، كان المتعلمون يُصيغون السمع لخفقان أجنحة الألفاظ، ويتدربون على التقاطها وهي طائرة بين الضوء والظل. يلتقطونها ويجبرونها على ان تحط على الصلصال الطري علامات أرجلها الناعمة، وتطبع فيها رسوماً صغيرة متراصة وواضحة. كانوا يُبدعون ما يغنون من قصيد.

ها هو نصٌ محفور على رقمٍ بالغتين السومرية والآكادية، يمجد لنا فن الكتابة:

"فن الكتابة هو أم الخطيب، وأب الفنان؛
فن الكتابة زاهٍ، لا نملّ أبداً فيضه؛
فن الكتابة لا يمكن تعلمه بسهولة، لكن الذي
تعلمه لا يقلقُ البتة.
حينما تسهر الليل من أجل هذا الفن، يكشف لك أسراره
من أجله، لا تكن خاملاً: فقد تجعل الناس
يتكلمون عنك سوءاً؛
فن الكتابة حظ سعيد؛ إنه غِنىً وفيض غزير!".

ولما صار الناسخون أكثر كفاءة، دخلوا في خدمة المعبد والقصر. في غبش القاعات الأنيق، كانوا يَسِمون بعلاماتهم الرُقم، والمسَلاّت، والأختام المتكدّسة. كانوا يؤلفون مجموعة من المعطيات، والقوائم، والمعاجم، والملخصات. كما كانوا يصنّفون، ويرتّبون، ومن خلال عملهم الدؤوب، يبثون الحياة، والنور والجمال في فوضى العالم.

وحذَت شعوب أخرى حذو هؤلاء السومريين، رواد الكتابة، وابتكرت أنظمة خاصة بها. فابتدع المصريون الكتابة الهيروغليفية، والصينيون الرسوم الرمزية، الرسوم والمايون القنوية.

وتحققت المرحلة الأخيرة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حين ظهرت في أوغاريت، على الشاطئ الفينيقي أبجدية الحروف الصامتة. فاللغة الأوغاريتية ـ وهي لهجة سامية كانت آنذاك ـ مخطوطة بكتابة أبجدية شكلها مسماري.

في القرن الثامن، تصور اليونانيون حروف العلة التي أكملت أبجدية أوغاريت حيث انتشرت في أنحاء المعمورة قاطبة.

ومضى أكثر من ألفي عام ايضاً.

وفي عصر النهضة، أطلّ ـ مع اختراع المطبعة ـ عصرُ الكتاب. ولم تَعُدُ الكِتابة بالضرورة في خدمة السلطة. يا للسعادة! فقد انفتحت على أكبر عدد من الناس. وحل عمال المطبعة محل الناسخين وطافوا بمشهدٍ ثقافي جديد.

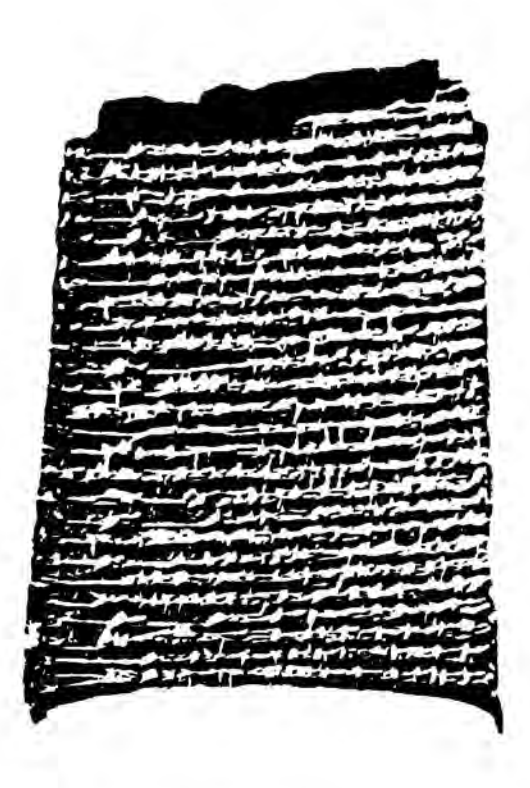
واليوم يترك عامل المطبعة المكان لمتخصص المعلوماتية. ويعزف مُستخدم شبكة الأنترنت على الحاسوب، باحثاً ـ مثل ناسخ سومر ـ عن ألفاظه وجُمُله فهو يخزن المعلومات، ويبتدع ايضاً "بنوكاً" للمعطيات، ويدعم قوته. وبفضل "الكتابة الصوتية"، يلوِّن آلتهُ بنغمة صوته، ويكتب. ومع ذلك، فاليد لن تختفي كما يبرهن على ذلك نهوض فنّ التخطيط، الذي يعبِّر عن الجمال أيّما تعبير.

وفي قلب حضارتنا تنتشر الكتابة، وتُخيِّم في كل مكان من كتاب المدينة الكبير: لافتات، وملُصقات، ودعايات المنتجات الرفيعة، وأسماء المخازن، ومواقف الحافلات. إذ كيف لنا ان نجد عنوان صديق من دون ان نقرأ اسم الشارع المكتوب على لوحة داكنة؟

ثم إن النقوش الرمزية تُبقع الجدران. والرموز تغزو بعض صفحات المجلات. كما تغدو الرسوم المعاصرة في قاعات العرض شبه إشارات ـ كلمات، وهكذا ينبعث تراث سومر في الحاضر.

إنما تظل الكتابة آصرةً، وشعلة، تُنير العالم وتغمره بالأضواء. لكن يا للأسف! لم يستضئ البشر بهذه الشعلة في أصقاع الأرض كلها. فملايين الأطفال والراشدين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولا منفذ لهم الى المعرفة من حيث هي ينبوع الحرية. ولن تتهيأ لهم متعة ان ينطلقوا بالقلم الذي تعانقه أصابعهم، على الصفحات، وسيكونون محرومين من كل سَند. ولن يتذوقوا نكهة الكلمات التي هي رحيق الأشياء، ولن يلعبوا معها. ولسوف يفتقدون الشعور بأن ذواتهم غدت رموزاً في نهاية صفحة مخطوطة.

أجل! إن ملحمة الكتابة ما كانت لتنتهي أبداً. وأهل بلاد الرافدين يحتفظون ـ كما تحتفظ الإنسانية كلها ـ بالذكرى المؤثرة لأول ناسخ يغرز بحبورٍ قَصبةً مبريّة في حليفة الصلصال الطريّ...



لوح منقوش عليه جزء من قصة الخلق البابلية القرن السابع ق. م

٥

اضطراب جلجامش

ها هنا، على أرض أوروك، تمكّنت أيضاً أن أرى معالم الأسوار القديمة المحيطة بخرائب المدينة. بناها الملك جلجامش حوالي عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد. وقد تغنّى الشعراء السومريون بمآثر هذا الملك في خمس قصص أسطورية إلى حد ما.

وفي بابل، وعلى أعتابِ الألف الثانية قبل الميلاد، تم جمع هذه الأساطير في قصيدة واحدة مُشْبَعة بالإلهام والغنائية، ومحررة باللغة الآكادية.

وسواء أكانت قصيدة جلجامش ملحمة أم مرثية أم مأساةً، فهي معروفة في نسخة نينوى المؤلفة من اثني عشر رقما، عُثر عليها القرن الماضي بين خرائب مكتبة آشور بانيبال، وهو ملك حَكم الإمبراطورية الآشورية عام ٦٦٨ إلى عام ٦٢٧ قبل الميلاد. وبعد تنقيح نَصها في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، تمت ترجمتها إلى عدة لغات، وانتشرت في العالم القديم برمّته.

حملتني الملحمة، كفَرَسٍ مُختال، إلى أزمان بعيدة، ليست معروفة كما ينبغي. في قلب مدينة أوروك، يسود جلجامش، العملاق ذو النسب العجيب؛ فهو ابن آلهة ونصف إله.

يتمتع جلجامش بسلطة استبدادية، يزهو بنفسه، ويبعث على الخوف كأنه جاموس. يستخدم الصبيان لبناء جدران المدينة، ويقضي ليالي الأعراس مع الفتيات المتزوجات حديثا.

ولكي تستجيب الآلهة لشكوى مواطني أوروك، الذين أضناهم إفراط جلجامش الجائر، خلقت من الصلصال عملاقاً آخر، عضلاته فائقة القوة،

وجسمه مكسوّ بالشعر، اسمه إنكيدو. عاش في قلب الواحات وسط الحيوانات المتوحشة، يرعى العشب مثلها، ويرد مصدر الماء ليشرب.

وبفضل رعاية أرملة من أوروك، تعلم عملاق الغابات لَذّة الحبّ. الحبّ المُباح والرهيف، والغذاء الإلهي الذي كان السومريون يتذوقونه بشهية عارمة. لقد فهم إنكيدو الروح عن طريق فهم الجسد. وغدا مُتحضّراً، وما لبثت الحيوانات أن هجرته؛ لأنه لم يعد ينتمي إلى نظام الطبيعة. وهكذا انعدمت الوحدة بينه وبينها.

أدخلت النديمة إنكيدو مدينة أوروك حيث اكتشف الخبز، والجُعّة، والألبسة والموسيقى.

هذا الرجل ذو الأخلاق البسيطة. المستقيم والبريء، يصطدم في عراك مع طغيان جلجامش الذي كان يضع نفسه فوق القوانين. وبعد أن تبادلا الجولات، وجب على الملك أن يتراجع، وتولدت صداقة رائعة وضرورية بين الخصمين، شديدي التشابه والاختلاف في آنٍ معاً. وقد أقبلت هذه الصداقة على الملك بعد طول انتظار. فأدرك أن الوجود يعني الحُبّ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي عرف جلجامش من خلالها الحبّ الحقيقي. مما جعله يدير طاقته في اتجاه غايات أخرى غير غلواء الشهوات. ولسوف يحقق ذاته في هذه الانطلاقة مع إنكيدو التي نذرها لهما الزمن.

ألا يبغي أن يُسطّر لنفسه صيتاً خالدا؟ من أجل هذا خاض مع إنكيدو معركة ضد حارس غابات الأرز العنيف "خمبابا". وعاد إلى أوروك عودة البطل. وامتلك من الجسارة ما جعله يرفض إغراءات الالهة عشتار. فدفعها إذلاله لها إلى أن تثأر بتسخير ثور سماء هائل ضده وضد صديقه، راح يكتسح المدينة بالدمار. غير أن جلجامش وإنكيدو أجهزا عليه.

انزعجت الإلهة لمقتل الثور، ولما كانت قد حملت إنكيدو وزر نهاية خمبابا أيضاً، حكمت عليه بالموت. أو لم يتعثر بالعجرفة ومجاورة

الحدود؟ وسقط العملاق الطيب فريسة المرض، فلَعَن النديمة وآل إلى الصلصال، وإلى الصمت.

بكى إنكيدو بحسرة مريرة شيوخ أوروك، وشبابها، والطبيعة كلُّها: الدببة والضباع، والفهود، والنمور، والجبال، والطرقات، وحتى الفرات الصافي. صرخ جلجامش وقد بَلْبَلَه هذا الحدث المُرعب: "كيف أسكُت؟".

لقد عاش مع "أخيه" كقصبتين زاهرتين في أحراش القصب. وفي العاصفة، انفصلت الساقان إحداهما عن الأخرى. قضى حياته في اللاوعي وفي الطيش، وها هو يجابه موت صديقه، وعمّا قريب سيواجه موته.

ويترنّح جلجامش، ويدرك الجانب الهزيل العابث لعلاقات الصداقة التي لا تترك أثراً في هذا العالم يزيد على ما تخلّفه قطرات زخّةٍ من المطر. وبدأ يوقعه في القلق حضور الموت المبهم، الزاحف ببطء.

ما العمل؟ ويحزم الملك أمره على مواجهة التحدي الذي ألقاه القدر أمامه. تجرّد من ملابسه الثمينة، ومن هويته، وخرج من المدينة. تاه في الصحراء مذهولاً، منفوش الشعر، على ظهره جلد أسد. فكّر في الأخطاء الفادحة التي ارتكبها. فلماذا لا يسعى إلى رؤية من نجا وحيداً من الطوفان، إنه أوتنابشتيم الذي يقيم فيما وراء أرض البشر، ويكْنَهُ سرّ الحياة التي لا نهاية لها؟

وينطلق جلجامش في عالم الاحتمال. ويبدأ سفراً باتجاه الشرق، سفراً مليئاً بالمكائد. يصل إلى الجبلين ـ التوأمين يحرسها الرجال ـ العقارب، فيحمل واحداً منهم على أن يسمح له بالمُضيّ عبر بوابة هذين الجبلين. ويتقدم خلال ممرّ ضيق ومظلم، غير قادر على إبصار شيء، لا من أمامه ولا من خلفه.

يمضي العملاق نحو المجهول. ويفضي ـ وقد أخذه الذهول ـ إلى حديقة عجيبة تتوهّج أشجارها في ضوء النهار توهّجاً لا ينضب، وتنحني تحت

ثقل ثمارها من الحجارة الكريمة بألوان شتّى، حمراء كحبّات العنب، وخضراء، وزرقاء، وبنفسجية. وعلى مقربة منها يوشوش موج البحر...

يقترب جلجامش من الشاطئ حيث يلحظ سيّدة الحانة سيدوري، فيطلب إليها أن ترشده إلى الطريق التي توصله إلى الحكيم أوتنابشتيم.

ووجب عليه أن يعبر، بمساعدة أحد البحّارة، البحر الذي لم يسبق أن عبَره أحد. وفي النهاية، ها هي حال المسافر، المرتدي مُزقاً من الجلد، الهزيل، والمتّسخ، والمحزون، يصل إلى أقاصي العالم. هناك تسطع الشمس الأبدية، فيتقدم للقاء أوتنابشتايم، عسى أن يفسِّر له هذا الأخير سرّ مصيره..

ويدعوه بطل الطوفان إلى أن يهدئ من روعه، وينصاع للموت الذي هو مصير البشر الكادحين إذ: "ينبغي أن تتقصّف البشرية كما تتقصّف قصبة الحرْش"

هو ذا ما قرّرته الآلهة الكبرى بشأننا

لقد فرضت علينا

الموت كما فرضت الحياة

ولم تحجُبْي عنّا

سوى لحظة الموت"(٤)

"جان بوتيرو، ملحمة جلجامش،

منشورات دار "فجر الشعوب"، ١٩٩٢ ص١٧١.

وحينئذ حكى أوتنابشتيم لجلجامش قصّة الطوفان. وكشف له أمر القرار الذي اتخذه إنليل، سيّدُ الآلهة، بأن يهبه ويهب زوجته الخلود. وما كان ملك أوروك ليتمكن من رجاء الآلهة أن تمنحه هبةً كهذه. وكان لا بدّ أن يعود من حيث أتى.

لكن امرأة البطل أوتنابشتيم، المشفقة على جلجامش، أودعت في أذنيه

سرّ الشباب. هو نبتة سحرية تنبت في أعماق البحر. ومن يحصُلْ عليه يتمكن من استعادة شبابه.

ويغوص جلجامش في الماء، ويستولي على النبتة وكأنها دُرَّة ثمينة. وفي طريق العودة، وبينما كان يستحم، سرقتها منه إحدى الحيّات.

إنها خيبة الملك كرّةً ثانية. فلا مهرب للمرء من القدر. وفي أقاصي الدنيا لم يجد جلجامش سوى ذاته. فعاد، راضخاً، وبسرعة البَرْق إلى نقطة انطلاقه عبر أبواب أوروك، مدينة الملاذ، المريحة والحنونة. وتمت دورة الدائرة.

هكذا تنتهي على نحو مأساوي ملحمة جلجامش الذي حاول ـ وهو في معاناته الشديدة ـ أن يتملّص من الموت. إلا أنه أخفق في تغيير نظام الكون.

بعد أن رُويت حكاية الأفعال العظيمة لملك أوروك، ألاحظ أن رحلته تتلازم مع مغامرة داخلية. فربما كان جلجامش أول من ابتدع التفكير الفلسفي بإثارته المسائل الكبرى المتعلقة بالإنسان وقدرته. ذلك أنه اكتشف شيئاً فشيئاً طموحاته الحقيقية، وامتحن ذاته عبر مراحل بحثه، مكرّساً لهذا عبقريته الخاصة، وخرج من البحر مولوداً من جديد، ولم يعد نصف إله، بل عاد إنساناً ناضجاً بالمعنى الكامل للكلمة، أي صار حكيماً. وفي النهاية امتلك "سيادة ذاته" بحسب التعبير الجميل الذي استخدمه الكاتب الألماني "غوته".

ويستقر جلجامش في مدينته الطيبة من جديد، ويطلب أن تحفر قصته ومآثره على مِسَلّة. ثمّ يجرّب نوعا معينا من الحرية ألا وهي حرية أن يحقق ذاته من خلال أعماله، وخياله المبدع. وينتهي من بناء الأسوار الرائعة لمدينة أوروك، ويُريها ـ باعتزاز ـ للبحّار العائد إلى عاصمته:

"اصعد يا أور شانابي

تنزّه على أسوار أوروك!
ما رأيك بهذا الأساس
اسبرْ قواعده!
أليس هذا كله
من القرميد المشوي؟

(المرجع السابق، ص ٢٠٤).

كيف قضى جلجامش بقيّة حياته في أوروك؟ هل أتمّ واجبه بوصفه ملكاً وفق ما يقتضيه الشرع؟ هل ظل يشغله الهروب الحزين من تلك الأيام، وحتمية الموت؟ هل رَحلَ في ذاتهِ من حيثُ أن هذا هو وحده الحيل الحقيقي؟ ففي الذات يبدو المكان والزمان قليلَيْ الشأن، حيث يسود السلام والانسجام مع العالم والآلهة. هل يرى في أحلامه حديقة الحجارة الكريمة، وأوتنابشتيم وملجئه السعيد حيث توجد صاحبة الحانة سيدوري التي التقاها على شاطئ البحر؟

لكونها امرأة حكيمة، دعته إلى أن يشيد لنفسه وجوداً مليئاً وثرياً (وهو وحده الذي يليق بالإنسان)، وإلى أن يعيش الخلود في كلّ لحظة فيما إذا عرف كيف يستخلص منها رحيق الحياة واللذة:

أنت
املأ بطنك طعاماً
وابْقَ مَرِحاً
ليلَ نهار؛
وأقِمِ العيد
كلّ يوم؛
ارقص، وتسلّ

ليلَ نهار؛
البس ثيابا نظيفة جيداً
واغتسل
وانظر بحُنُوّ
صغيرَك الذي يمسك يَدَكَ
وحقّق سعادة زوجك
التي تعانقك
لأن هذا هو وحده مرام الناس جميعاً

(المرجع نفسه، ص٢٥٨).

وبفضل أفعاله البطولية، وإنجازاته، وبفضل سحر الكتابة الأشبه بسُور من الرموز المحفورة على الرُقُم، وبفضل التاريخ أيضاً، جاوز جلجامش العصور، وفاز بالخلود.

ولأن في وسْع الذاكرة وحدها أن تتسامى على الزمن، فإن مغامرة ملك أوروك لم تعد تنتمي إلى بلاد الرافدين وحدها، بل إلى العالم أجمع. ولأنها مصدر أساطير عظيمة، فقد أوحت بعدة مقطوعات من العهد القديم، وسفر الطوفان، وسفر الجامعة، وقصص الإغريق القديمة، كبطولات هرقل، وصداقة باتروكل وآخيل في الإلياذة.

فالحضارة الغربية إنما تستمد جذورها من ماضي الشرق القديم.

ها أنذا أنفتح على جمال هذه الملحمة. فعندما أقرأ فيها، أقرأ في ذاتي، لأن صورة ملك أوروك المؤثرة إلى حد بعيد، وصداقته النادرة مع إنكيدو، وحزنه على اختفاء رفيقه الذي يميط اللثام عن ضعفه، ثم تسليمه بالواقع، تقودني إلى تأمُّل معنى حياتي: من أنا؟ هل حدّد أحد مصيري سابقاً؟ مع أية آلهة أتبارى؟ أيّة عمالقة، أو بالأحرى أية شياطين داخلية ينبغي أن أواجه؟ وهل

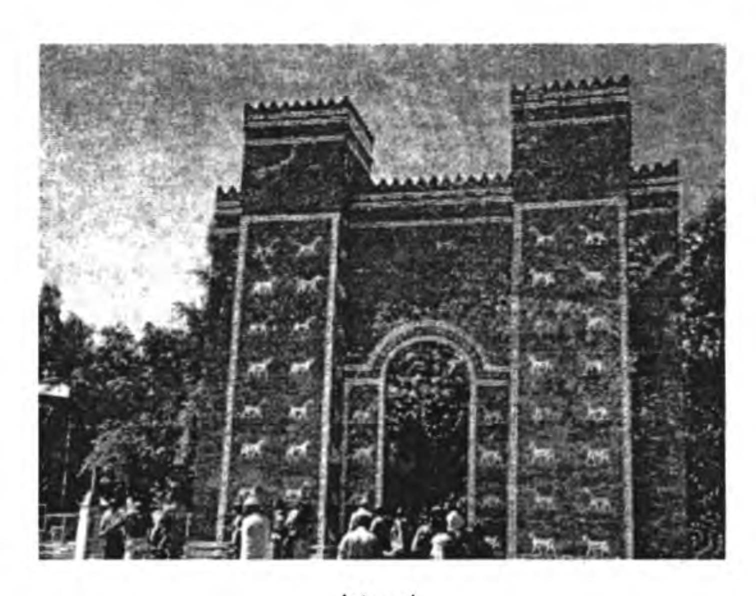
أمتلك حرية حقيقية؟ إن الرغبة في الخلود التي دفعت جلجامش للمضي بحثاً عن مثلٍ أعلى تبدو لي أمراً مشروعاً، بل إن هذه الرغبة تشكّل قاعدة كل فعلٍ جميل. العالم يتغير، والآلهة تنسحب ولا تعود تتدخل بسهولة في شؤون الحياة الدنيا، غير أن قلب البطل يظل أصيلاً كما هو، بتعطشه للمغامرات والصيت، وشجاعته، وصراعاته، وحدوده، وأمله الفسيح. فقدر الإنسان هو الإنسان نفسه.

الآن أكتشف حداثة الأساطير القديمة. إنها تشغل حيزاً واسعاً في عقول المؤلفين المعاصرين القلقة: كافكا، وبيكيت، و آنوي، ويونيسكو...

ذلكم هو شعور الإنسان بأنه مهمل، وأنه يتقدم وحده باتجاه مستقبل غير مضمون كتقدم ملك أوروك في النفق المظلم للجبلين التوأم، وشعوره بتفاهة أكثر أفعاله، ناهيك عن شعوره بالقلق من الموت ورفضه.

في كتاب السرّ العظيم يُحرز الكاتب الفرنسي رونيه بارجافيل Rene Bajavel لشخصيات روايته بالخلود، ويقودها نحو مصير لا حدود له في الزمن لكنه محدود في المكان الذي هو مجرد جزيرة صخرية صغيرة. ويجهد - من خلال العلم - ليحقق حلم الخلود الخطير، لكنه لا يفلح في ذلك لأن"الحياة من دون الموت تجعل الحياة مستحيلة"(السرّ العظيم، منشورات presses de la cite، ص١٥٨).

الإخفاق مؤقت؟ ففي الولايات المتحدة، وكندا، وأوروبا، يدرس الباحثون أجهزة الكائن الحي الذي يمكن أن تساعد السيطرة عليها في إطالة أمد البقاء. ومن يَعلم؟ فإنها قد تساعد ذات يوم على إلغاء الموت، أليس هذا هو حلم الإنسان بالخلود، وحلم جلجامش أيضاً.



باب عشتار

٦

علماء نيبور

كان صوت داخلي يشبه صوت أصولي، يحثُّني على متابعة بحثي. بعد عودتي من أوروك، مررت جانب مدينة نيبور القديمة، الواقعة إلى شمال مدن البلاد، ممتدّة قرب الأهوار الكبرى. كنت أقود سيارتي ببطء، غائصاً في حلم تاريخي، تغذّيه قراءاتي، المذكرات الجماعية للناس، حيث تنبعث منها المدينة، كأنما بفعل السحر، وتُلقي بنفسها في دورة ملحمية هي دورة آكاد.

حوالي عام ٢٣٣٤ قبل الميلاد حقق الساميُّ الشاب سرجون، المولود في منطقة آكاد، في بلاد الرافدين الوسطى، نصراً أكيداً في المعركة على الأمير القوي لوغالزاجيزي، حاكم مدينة أوروك. ثم أسَرَه، ووضعه في الأغلال، واقتاده إلى نيبور، وهناك، عرض، على نحو مسرحي، سجينه في مدخل معبد إنيل، سيّد السومريين وإلهم الأعظم.

وعلى رغم من شدّة الحرارة الحارقة، سرعان ما تقاطر جمهور فضولي أمام المعبد الكبير وأرتقى لرؤية الأسير، كأنه كموج البحر.

كان لوغالزاجيزي يتأمّل مصيره مطأطأ الرأس. تغمره سخرية مريرة وهو يتذكّر الدعاء الذي أمر بحفره على إناء مقدسّ:

> أيتها الآلهة، اجعلي الجنس البشري كلّه ينعم بالحياة كالنباتات والأعشاب، واجعلي قطعان أغنام آنا تتكاثر وتنمو، واجعلي شعب البلاد يطوّف بنظره على أرض جميلة. واحفظي لي الثروة التي وَقَفْتِها باسمي. ولأكُن الراعي الأول. حتى نهاية الأزمان.
>
> (مستشهد به سومر، منشورات Time-life،
> امستردام ١٩٩٣، ص ١١٩).

لم تتنازل الآلهة وتستجيب لدعاء ملك سومر الداخل في صراعٍ مع واحد من الفاتحين الأكثر تفوُّقاً في الشرق القديم، وهو سرجون.

وتبدأ قصّة خارقة أمام الباب الهائل للمعبد. فلّما كان الباب مصنوعاً من خشبٍ لا نظير له، هو ألخشب الأرْز، فقد احتفظ بذكرى جلجامش، ملك أوروك، وصديقه إنكيدو اللذين نصبا الباب كهدية لأبي الآلهة بغية نيْل عطاياه. وكان أمل سرجون أن يحمل له هذا الباب فألاً حسناً. لأنه كان يعتقد بالمنامات، والنبوءات، والإشارات المبشّرة والتجديد. ولما رفع رأسه نحو العُلى، كانت حمامة حمامتان، ثلاث، بل أربع حمائم تُبشر له مستقبلاً في نور العصر البنفسجي. فرأى نفسه مقبولاً لدخول المعبد، وإثبات حقوقه في العرش، مثل كل ملك للبلاد. الكهنة يضعون على رأسه التاج الملكي، مقدّمين له الصولجان، والملك، حِلْيَة مُدُنِ سومر وآكاد.

ومدينة نيبور التي يحاذيها الفرات من جهة الغرب، كانت حينئذٍ العاصمة الدينية الكبرى. فوِفق أسطورة سومرية قديمة، فَصَلَ الإله إنليل – يوم التكوين – السماء عن الأرض في هذه العاصمة. وخلق النجوم، والنخيل. وحفر بفأس حفرةً في الصلصال، فانبثق الجنس البشري. وفي نيبور تجتمع الآلهة الوضاءة لتقرير مصير البلاد. يوحي طابع المدينة المحوطة بالأسوار العالية، والمزوّدة بالزقورات، بالرهبة والجلال. إذ كان مجد الإله إنليل يخيّم دوماً على مختلف الأحياء و على الحديقة الواسعة، حيث تعلو الأشجار كشُعُلات خضراء وذهبيّة. وفي المعابد الرنّانة كانت تعلو أنغام الناي، وايقاعات الطبلات، والآلات الموسيقية الأخرى. كان الحجّاج يتدفّقون على نيبور حيث الهواء النقي الخالص، يلبسون الصوف ويقومون بمراسيم الصلاة، ويقدّمون العطايا، فاتحين نفوسهم لقوى النور في السماء، يجدون في ذلك ذواتهم الروحية والجليلة...

لم يكن لدياناتهم مؤسس و لا عقيدة. ومع ذلك كانت عامل نظامٍ وتَقَدُّم.

تربط الفرد بالكون والمجتمع. وبفعل إغتذائها من الأساطير، كانت تنظَمها طقوس مقدّسة، وأناشيد، وأعياد ترشح بالدهن والحليب. وبالإضافة إلى أن مدينة نيبور هي عاصمة دينية، فقد كانت أيضاً مدينة عِلْم ومعرفة. لمع فيها نجم الكتبة الذين كانوا يدورون في أول نواة للمعرفة. وهناك أسّسوا واحدة من أهمّ مدارس سومر، بحسب ما اكتشف علماء الآثار الأمريكيون الذين كانوا يُنقبون في الآثار المنتشرة بكثرة في نهاية القرن التاسع عشر. فعلى الرغم من الحرارة، وزوابع الرمال المباغتة التي تنقضّ عليهم كاللّبوات، نبشوا حوالي أربعين ألف رقيم، بعضها يحتوي لوائح بأسماء الملوك، وبالأمثال، وبعضها يتعلّق بالدين، والطب، والحقوق، والأدب، وبعضها الآخر خاصّ بعلوم الفلك، والرياضيات، والفيزياء والعلوم التي سمحت بحل مشكلة الزمن المستعصية.

والزمن –غير قابل للتراجُع، وذو البنية الخطّية أو الدائرية– ينهمر كالسّيل في هاوية لا قرار لها. فمنذ الألف الثالثة، تحقّق العلماء من أن الإنسان إذا أراد أن يعيش في المجتمع عيشاً أفضل، ويتصرف، ويتصل مع الآخرين، ويقدّم لنفسه صورة معينة للعالم، ويبقى ببساطة إنساناً عليهِ أن يحسب الزمن المحرّك للعالم ويحسبه في عمليات ما، ويُدجّنه عن طريق القياس. بغية ذلك، صعد علماء الفلك إلى أعالي المدينة، ولاحظوا دورية الكواكب، وتعاقب أطوار القمر، لأنه مرجع أساس، ودوران الشمس. كانوا يراقبون عودة الربيع الأبدية بحُلّتها الخضراء، ومن ثم وصفوا الفصول المرتبطة بنظام الأمطار وفيض الأنهار.

أوصل المتخصّصون حساباتهم إلى مرحلة النّضْج. واعتمدوا نظام "تقاويم" في المراكز السياسية في سومر كلّها. أمّا تقويم مدينة نيبور فقد فرض نفسه على البلاد في بداية الألف الثانية، بفضل الأعمال الزراعية، والحياة الاقتصادية، وإقامة الأعياد والطقوس.

كانت السنة تبدأُ في الاعتدال الربيعي، عشيّة ظهور الهلال حيث كان يُحتفل بذكرى عيد آكيتو، أي السنة الجديدة. وكانت تتكوّن من اثني عشر شهراً مقسمة إلى تسعة و عشرين أو إلى ثلاثين يوماً. ولم يكن عدد أيامها سوى ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً، ولهذا السبب قرّر ملوك البلاد أن ثمة مدة مطّاطةً لشهر أو لشهرين إضافيين.

لم يتوقع علماء نيبور دوام هذا التقويم لزمن طويل، إلا أنه فإن هذا التقويم ظل قائماً خلال ما يقرب من ألف وتسعمائة عام، أي حتى عصر الإسكندر الأكبر. أما أنا فماذا ورثتُ من بلاد الرافدين؟ ورثتُ الأسبوع المتكوّن من سبعة أيام أساسها أهلّه القمر، وتطابق أسماء الأيام مع الكواكب. كنت أستعين غالباً بساعتي حيث تدور عقاربها حول إطارها، دوران الشمس في السماء. كانت مقسّمة إلى اثنتي عشرة "ساعة– مضاعفة" وهكذا يبلغ عدد ساعات اليوم أربعاً وعشرين وهذا النظام ورث في بلاد الرافدين أيضاً.

...

أحببتُ أن أجلس في ظلّ الزمن متأملاً الفرات الشارد الذي يجري ماضياً اليوم بعيداً عن نيبور. كانت قوارب قليلة تناسب فوق المياه الرقراقة، يدفعها شباب يجذفون. كانوا يتقدّمون بعكس ظهورهم يتتّبعون بنظرهم الشواطئ البُنيّة حيث تركوا مراهقتهم المزيّنة بذكريات برّاقة. كانوا يجرون باتجاه مستقبل غير مضمون مخبوء وراء ظهورهم، لم يُهيّأ لهم أن يروه.

كنت ألاحظ بعينين عريقتين، مليئتين بالعَجَب، رؤوسهم السوداء التي ذكّرتني بروؤس قدماء بلاد الرافدين. فهؤلاء – وقد راعهم المستقبل – كانوا يفضّلون سبر أعماق ماضيهم، البارق دوماً أمامهم. إذ كانوا يمتلكون مفهوماً خاصاً جداً عن الزمن والتاريخ!

عندما وصل الرياضيون إلى وسط النهر وقوّتهم تكاد تنفذ توقّفوا عن التجذيف، وأرسوا قاربهم في مستنقعٍ أحمر..



حمورابي (متحف اللوفر)



٧

حلم سرجون الآكادي

ما نبتغيه اليوم هو ان نخلع على عصرنا ألوان المغامرة، لذا نمجد قوة تعوّض عجزنا، تقلب أنماط حياتنا الرتيبة رأسا على عقب. وما نرجوه هو أن تقودنا هذه المغامرة إلى مكان ما، وتحقّق الرغبات الغائرة فينا. فنحن، على ماتظهر المنتوجات الحديثة من أفلام، ورسوم متحركة، وكتب، نحب أن ننقاد لهذا الحلم البطولي، من حيث هو شهوة روحنا المنتصرة على صباحات مضيئة. و إن هذا الحلم يلزمه قليل من الاشياء لكي ينطلق، وراء ذكرى معركة مدينة آكاد عاصمة الإمبراطورية الآكادية.

كان موقعها شمال نيبور، وصلت إليها توا وهي سهل ممتد، ونور كثيف، وغبار ذهبي اللون، مائج كالبحر.

آكاد...... شيدها العمال بقلب ناضح فرحا، مازجين الزيت والعطر بالقرميد، إنها درة منذورة للآلهة. وتاج مطرز بين أيدي الملوك. كانت مدينة فاخرة، منظمة تنظيم جيش، غنية بالرفاه والحكمة. تطلّ شوارعها على المستقبل المتألق. كذلك كانت ميناءً نهرياً هاما. فبحسب التدوينات الملكية، كانت بواخر مالوها (في وادي الهندوس)، وماغان (عُمان)، وتيلموم (حاليا جزيرة البحرين في الخليج)، المحملة بالذهب، والفضة، والمعادن الثمينة، والبضائع المحلية، ترسو على أرصفتها بضجيج أصم بهيج. تحكي الألواح قصة سقوط آكاد. حيث صعقتها الآلهة وهي في حال من الغضب العجيب. كان ينبغي أن تعرض للفوتيين، البرابرة المنحدرين من جبال الشرق. وظلت هناك، جريحة، طريحة الأرض، تغوص أنشودتها النادبة في الرمال....

وما بقي منها إلا السهل الوعر، الأجرد من الشجر، تحت شمس حارقة. كان يبدوا لي أنني تائه ها هنا منذ آلاف السنين، باحثاً عن المدينة المندثرة. فأين أجدها على جبهة التلال التي تبدو – هذا الربيع – مائجة وسط المحيط الصحراوي؟ لم تصل خبرة علماء الآثار الى اكتشاف مكانها فمع إنها مندثرة، فهي ماتزال تشوّشهم. إذ إن تلألؤ معابدها، و قصورها، بجمالها الخفي، يتراقص ليلاً في مياه أحلامهم.

وكانت أرض آكاد المشبعة بالتاريخ تحتفظ بذكرى أول ملوكها، وهو شارو –كين أو سرجون. هذا الملك الذي فتح– قبل الإسكندر، وقيصر، أو شارلمان بزمن طويل – دورة هؤلاء الفاتحين الكبار الذين يمتطون الريح، و يبذرون العاصفة، والذهب والنصر.

ينحدر سرجون– كالاسكندر– من وسط ناءٍ عنا في غابر الزمن. عاش نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد (٢٣٣٤–٢٢٧٩). ولاشك أنه سليل واحدة من هذه القبائل الآكادية، المستقرة منذ عهد طويل في وادي الفرات الجنوبي. والآكاديون كانوا ساميين، يتكلمون لغتهم الخاصة، وقد تبنّوا الحضارة المحلية وكان الشعبان السومري والآكادي يقطنان معا، من دون بغضاء، يتقاسمان طريقة العيش ذاتها، والتقنيات الزراعية نفسها. و كانت قوة السومريين وشدّتهم و طريقتهم الرسمية توازي معنى النظام وروح الإبداع والبذخ والنعومة التي كانت عند الآكاديين.

هنا تنضج الإسطورة كثمرة يانعة، وتغذي إرث سرجون. ففي القرن السابع قبل الميلاد، كتب ناسخ آشوري قصة أسطورية عن أصول الملك، وانطقه بالقول:

"كانت أمي كاهنة عظيمة. أما أبي فلا أعرفه. كان إخوة أبي يسكنون الجبال. مدينة ولادتي هي آزوبيرانو الواقعة على

ضفاف الفرات. أمي الكاهنة العظيمة حملت بي، وولدتني
خفية، ثم وضعتني في سلّة من الأسل. وأغلقت فتحتها بالقار.
وألقت بي في النهر، وما كان بمستطاعي الخروج منها".

(استشهد بالنص جورج رو: بلاد الرافدين،
منشورات Seuil، ١٩٨٥ ص١٣٩)

لم تكن الكاهنة العظيمة تمتلك حق إنجاب الأطفال، لذا ترك سرجون طعماً للأمواج فالتقطه أحد "غارفي" الماء وعاش حياة بسيطة في الخفاء. وقد تعلّم من مهنة البستاني.

يا للعجب، ها قد لاحظتُ الإلهة عشتار الشاب، فأخذت بيده، ووضعته على طريق الثروة. وجعلته نديما في بلاط ملك كيش السومري أور ابابا.كانت كيش حينئذ- مدينة ساحرة، راسخة في السهل المزروع بالنخيل.و تحكي التقاليد أن الملكيّة هبطت عليها من السماء بعد الفيضان.

هل أطاح سرجون بأور - زابابا؟ هل اغتصب العرش؟ ام استولى بحرية على السلطة تساعده طائفة من العمال بغية مواجهة أحداث تلك الأزمان المضطربة؟ خلال التنقيبات الأثرية الأمريكية في نهاية القرن التاسع عشر، تم كشيف رقيم في نيبور يطلعنا بصورة جدية أكثر على بقيّة قصة سرجون. يبرز الرقيم - بوصفه عمل ناسخ مجهول- التدوينات المنقوشة في معبد إنليل، على مسلات وتماثيل ونصبها الملك الطموح وحلفاؤه إحتفاءاً بانتصاراتهم. ناطح سرجون مناطحة ثور بري إذ هاجم ملك أوروك، الطاغية المتغطرس لوكالزاجيزي الذي كان يحكم سومر منذ خمسة وعشرين عاماً. فانتصر عليه انتصاراً مفاجئا خلال إحدى المعارك. وعلى قرقعة البلطات والرماح هدم جدارالمدن- الدّول الرئيسية، و راح يتأمل وليمة النسور القاسية المنشورة على رايات حول أعدائه المطروحين أرضا.

كان القائد الشاب يطرق حلمه بالسيف، منتصرا في المحن كلها، ماضياً من نصر إلى آخر، يدفعه كل نجاح صوب ما يليه.

و هكذا غدا ملكا "كيش" أي سومر و آكاد.

إن أنانية سرجون، و طموحه، و إيمانه بحظّه و بحماية الآلهة، و قناعته بالنصر القادم والإرادة الحرة، قادته إلى فتح العالم المعروف حول مركز آكاد، العاصمة التي قد بناها.غزا البلاد كلها، ثم غزا سورية. وصل إلى جبال الأمانوس و طوروس في الشمال الغربي. دخل مدينة سوسة مركز إمارة عيلام في الشرق. و مكثت ماريو وإيبلا بدورهما خاضعتين أمام وجهه.و بفضل مهارته، وعبقريته العسكرية نشر هذا المغامر سلطانه على الأراضي التي دمغتها الحرب ثم أخضعتها. و أسس أول إمبراطورية حقّة كانت تمتد من الخليج إلى البحر المتوسط. وشمل حكمه المكان الذي تشرق منه الشمس و المكان الذي تغرب فيه.

ثبت اسمه"شارو – كين" أي "الملك الشرعي" نزلت هذه التسمية إلى الشوارع وساحات المدن. و لما وجد منفذا على الشواطئ السورية، شرع بفتح باب الإتصال بين الشرق والغرب. ذلك إن الغرب في ذلك العصر البعيد لم يكن قد وعى نفسه بعد.

يالها من عاصفة إنسان بقلب من حديد. مسيرته شبيهة بالبرق، وغزواته كصاعقة، ليس بما تعود عليه من أصقاع وألقاب فقط، بما وهبته أنوار ونجوم للتجديد.

وفي نهاية فترة الشباب المحفوف بالمخاطر، وبعد أن أشبع أكبر طموحاته، استقر هذا البطل الفريد في مجد سيد قادر، و حكم البلاد محوطاً بأهله، وبخلانه. وقد دفعته تربيته، وأذواقه، وكفاءاته، وروحه الجريئة المجددة إلى تكوين رؤية للعالم أصلية وعظيمة، تنطوي على منظومة قيم عسكرية، ودينية و اجتماعية.

من اجل أن يشيع سرجون النظام في إمبراطوريته و يعلي شأنها، رعى أفضل وسائله لذلك، أي الجيش، ساعياً إلى تطويرها باستحداث فرقة إستنفار دائم. واختار أسلحة مدنية كالسياسة، و النظام الملكي الموحّد، والإدارة المركزية المفروضة على الأقاليم. فأجبر المدن– الدول المتصارعة فيها بينها على أن توقف صراعها الدائم. وقد حافظ الملك على حكّامها، لكنّه أخضعهم جاعلامنهم موظفين بسيطين. كما أضعف القوة الإقتصادية التي كانت للمعابد واختار هو نفسه الرؤساء الدينيين، وعيّن ابنته كبيرة كاهنات معبد سين الشهير في مدينة أور. واستمرّ هذا العرف حتى عهد نابونيد، آخر ملك لبابل الذي عزل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد. بدأت مع سرجون ملك آكاد فترة غنية بالفن حيث وضع الآداب الجميلة في خدمة مجد. وراحت اللغة الآكادية – السامية تحل شيئا فشيئاً محل اللغة السومرية، بوصفها لغة رسمية مكتوبة، وانتشرت في بلاد الرافدين العلياو تبنّتها البلدان المجاورة. وعلى خلاف الإسكندر، كان سرجون، أسد آكاد، ذا صحة قوية، لذا حكم أكثر من خمسين عامٍ على امتداد إمبراطوريته الشاسعة، وما استطاع ردح طويل من الزمن أن يحجب بريق رمحه. لقد أسس سلالة قُيض لها أن تبقى مهيمنة على الشرق الأوسط مدّة قرن ونصف. وفي عام ٢٢٧٩ ساعة كانت الحمائم تطير للمرة الأخيرة، سعى إلى قدره......

ان الحظ العجيب لهذا البطل، بريق إنجازاته و انتصاراته التي كانت تنظم وقع حياته، وروائية قصته، جعلته خليقا بدخول الأدب، و عالم القصص، والنبوءات، الملاحم، والأساطير.

هكذا اتخذ اسم سرجون طابع الرمز. حتى إن صبية شمال العراق الذين تستهويهم الشخصيات البارزة، يحملون هذا الاسم إلى اليوم بفخر لأنه ما

يزال يحتفظ بامتلاء معناه كاملاً. يريدون ان "يتشبهوا" بملك آكاد، وأن يُغَذّوا أنفسهم بشعلة مثله السامي. أولم يسكنم فيهم حنيناً، ورغبة، وانطلاقا؟ أولم يحقق الشمائل الأجمل: الذكاء الخالص، والجسارة، والشجاعة في سبيل قضية نبيلة، والمثابرة في بلوغ الغايات، والسمو بالذات دوماً، ونبل النفس وقوتها؟يوجههم -كما يوجه الرافديين كلهم- إلى مغامرة حماسية بالغة الروعة: إعادة بناء وحدة البلادفيما بين النهرين، على الرغم من تنوع شعوبها، ولغاتها، وثقافاتها، ومراقبة طرقها التجارية، وجعلها وطنا قويا، مزدهراًيحكمه رَجُلٌ مقتدر وحكيم في آن معاً. هو ذا سرجون البستاني الشاب، ثم القائد الموهوب، وسيد الإمبراطورية العظيم - عائد في آلاف همسات النخيل، وفي ذاكرة الياسمين الطرية، وفي زمجرة العاصفة، كما في الشمس الظافرة.

وأكمل نارام - سين حفيد سرجون خُطا جدّه.

كان في مستطاعي أن أستحضر نارام - سين من خلال أشياء زاهية تمجد عظمته الملكية إنّ قصته نبيلة رصينة كالقناع البرونزي الذي تم العثور عليها في نينوى، فترة مابين الحربين العالميتين. القناع يمثل هذا الملك متوجاً رأسه بضفيرة سميكة من الشعر، ولحيته المجعّدة تضفي القوة والتفرّد على وجهه الذي يأتي إشعاعه من الفراغ السري الكامن في نظره. وعلى الرغم من التشويهات التي ارتكبتها أيدي أعدائه، في أنفه الأفطس، وفي أذنيه، وعينيه المتكونّتين من عناصر ثمينة، حافظ القناع على جمال ملاحمه الشامخةو الهادئة.

نارام - سين، أي "ملك الجهات الأربع" ذو الحضور الجليل تحت القناع، يظل ملازماً لزائر متحف بغداد. إنه صدَفة من البرونز القديم حيث تَعصِفُ روح ملك مُؤلّة، ممهور بخاتم الحظ، واثق من هيمنته......

ورث نـارام– سين عـن جـد الـعـقـل المرن والـبسالـة الـعسكريـة. لذا قمـع العصيـان الذين كـان ينفجر في نـهايـة كل عهد أو في بدايتـه. أمضـى القسط الأعظم من حياته من المعارك، قارعا طبل الدروب التي فتحتها لـه الآلهة. وجند نفسه –ومض الجبهة– لغزوات بعيدة على حدود بلاد الرافدين، في عيلام، وسوريـة، وآسيـا الصغرى. وتشهد على مروره الظافر في تلك الأنحـاء منحوتات بـارزة على جنبات الصخور في الأنـاضول، وجبـال زاغـاروس.

ثمـة مسلّة فـاتنة، عُثر عليها في مدينـة سوزة، ونقلت فيمـا بعد إلى متحف اللوفر، تظهر الملك في واحد من تلك المنـاظر الريفية على رأسه قلنسوة بقرني آلهة، يرتدي محزماً ناصعاً كالنجم، ينتعل خفاً، وكـان سلاحه المرفوع بلطة، وقوساً وسهمـاً.

هذا الملك الشاب، شديد البأس، الذي يفوق قصة حياته عظمة، في جـانب مـن المسلـة كـان يـتسلـق قـمـة الجبـل المدور. كـان يقـود جنـوده المعبّئين بـانتظام و يدوس أعداءه اللولويين في الشرق. وقد إنطلق غـازيـاً العـالم وذاته، لا شئ يوقف اندفـاعه الخطير الذي كان يدور في الجبل أما في الجانب الآخر للمسلة فكان يقطف ثمـار الظفر. وكـان لـ "سرجون" و "نـارام –سين"– من خلال الرابطة الروحية أكثر من رابطة الدم – عدة وارثين، أمسكوا بزمـام السلطة الفذة: الأمراء السومريون من السلالة الثـالثة في أور، وملوك بـابل وآشور، فهؤلاء جميعاً نهلوا من حقبة آكاد ثروات مـاضٍ ملـيء بـالنعمة ونذورا طقساً لرواد ملوك آكاد الذّين كانوا مثلهم الأعلى. واستمروا في زخرفة أسطورتهم و تزيينها.



مسلة نارامسين الأكادي متحف اللوفر

٨

كنّارات أور

أور... هذا الاسم كان يُزهر رائعاً كحزمةٍ من ذكريات الطفولة. ففي ذهني انتصبت صورة الشيخ الموقر "إبراهيم". حيث يروي كتاب العهد القديم أنه أمضى طفولته في مدينة أور في بلاد الكلدان. وذات يوم خرج من المدينة صاعداً باتجاه الشمال الغربي، وتوقف للاستراحة في حران. ومن ثمّ وصل إلى أرض كنعان، واستقرّ فيها. لكنه لم ينس أبداً وطنه، بل ظل يشدّه الحنين إليه. وفيما بعد رزق ولداً هو اسحاق، ترعرع أمام عينيه، وزوّجه من فتاة رافدية اسمها رفقة.

حينما كنت شاباً، كانت لي صورة «لوحة» شاحبة عن مدينة أُور. سبب ذلك يعود الى ما يَذكرهُ سفر التكوين، وأصدائه، ورغباته، وتضحياته.

وأقبل الزمن حاملاً إلى لوحتي لمسات من الواقع واللون. نزلت من جديد باتجاه الجنوب. تقع أُور، واسمها مقيَّر حالياً، على مسافة عشر كيلو مترات تقريباً غرب مدينة الناصرية، وصلت توّاً إلى أسفل تلٌ هدّمه انجراف التربة الذي يهيمن على هضبة حزينة.

تصادمت كثرة الأسئلة في رأسي: أين كانت المدينة السعيدة الفخورة، المتمدّدة باسترخاء بين ذراعي الفرات؟ أيّ قدرٍ تاعسٍ ألمّ بها، وأفرغها من أهليها؟ إن أغلب بيوتها آل إلى صلصال: لم يبق سوى قطع من جدران حيّ قديم مهدّم. أما بساتينها فتحوّلت إلى صحراء، ولم تعد خصبة كرومها، ونخيلها أكثر من ذكرى. ذلك أن ثرواتها كانت قد وريت غبار النسيان.

حوالي القرن الرابع قبل الميلاد ماتت مدينة أُور إثر عمر مديد وبعد أن خانها الفرات حيث يجري الآن بعيداً عنها.

مضيت في طريقٍ جنوب الموقع الأثري. تأمّلت الفوهات السوداء، المتثائبة كأفواهٍ قبريّة تشير إلى مواقع أضرحة المقبرة الملكية. أخذت حفنة من الرمل، وتركت ذرّاتها تنساب من بين أصابعي...

عام ١٩٢٢ هزّ العالم اكتشافان عظيمان. ففي عمق وادي الملوك، في مصر اكتشف الإنكليزيان، هوارد كارتر، ولورد كارنافون، قبر فرعون شاب هو توت عنخ آمون الذي مات وعمره عشرون عاماً، حوالي ١٣٤٣ قبل الميلاد. وفي خريف العام نفسه كان لإنجليزيٍ آخر- هو ليونار وولي، ابن أحد القساوسة الذي صار عالم آثار، وكان يدير التنقيبات في مدينة أور أيام الانتداب البريطاني على العراق- أن يرى انبثاق مدينة أمواتٍ سومرية.

ولمّا كان (وولي) نزيهاً، وصبوراً، وشديد الدقة، وجد أنه وأفراد فريقه غير جاهزين للشروع في تنقيبات جدّية، ولذا أجّل التنقيب في المقبرة. وخلال أربع سنوات جهد للّحاق بمجرى التاريخ وتكملة مشروع التنقيب.

هل اختار السومريون، على صوت الكنّارات في الألف الخامسة قبل الميلاد، هذا الموقع المأهول حينذاك بمزارعين ومربّي قطعان، وبَنَوا بعجينة الصلصال أوّل أسوار مدينة أور؟ إذ إن هذه المدينة- نتيجة تغذيتها الجيّدة بالمياه ـ نعمت بالرفاه على مرّ القرون، وجمّعت آلاف السكان، ووهبت نفسها ملكاً، وغدت مركزاً هاماً حيث كانت تقدّم النذور لنانا، الإله ـ القمر.

آه! كم كانت جميلة ياترى مدينة أُور في عهد السلالة الأولى، حوالي عام ٢٦٠٠! أجل كانت، وأقدامها في الماء، يفوح منها عطر أشد من خميلة عاطرة، لقد بلغت درجة قصوى من الترف، والرفعة والتحضّر، وكانت أيضاً أشبه بقارب من الفضة محمّلٍ بكنوز لا تقدّر بثمنٍ، يمخر عباب أحلام عجيبة لأمرائها.

ولقد فهم (وولي) جيداً تاريخ المدينة. واكتسب ما يؤهّله لإكمال

التنقيبات وتأريخ الأشياء القديمة. وبين سنتي ١٩٢٦ و١٩٣١ اكتشف ١٨٥٠ قبراً تشبه آباراً بسيطة مستطيلة الشكل، ١٦ كهفاً ملكياً من القرميد والحجارة. كان بعضها منتهكاً. ففتحها عالم الآثار، ورأى في داخلها أسرّةً، وصناديق خلاّبة، وأسلحة، وألعاباً، وآنية، ومجوهرات. وحين كان لا يزال مبهوراً بالمشهد، انحنى ليلتقط على ضوء مصباحه الكهربائي، خوذة من الذهب المنحوت، على شكل شعر مستعار، ملقاةً قرب جمجمة واحد من الرؤساء. ثم وضع إصبعه على قبعة ثمينة لملكةٍ سومرية هي الملكة فيابي. أبعد قليلاً، في أسفل مخرج إحدى الحجرات، لاحظ وجود نثرات هياكل عظيمة جافة. فكان هذا كشفاً قاسياً لأعراف جنائزية لم تكن معروفة حتى ذلك الحين في بلاد الرافدين. فالملك المتوفَي كان محمولاً في الضريح مع أشيائه الخاصة، يرافقه في الموت جُلساؤه، وخدمه، وموسيقيوه.

"على أنغام الكنّارات، نزلت جلالتك إلى مثوى الأموات".

أجل! إن بقايا الربابات والكنّارات الرائعة، كانت ما تزال تومض تحت نظر السيّد وولي. وثمة زوارق جنائزية، عليها أشكال ناتئة لثيرانٍ برؤوس من الذهب والفضة، كانت قد أقلّت الملوك والملكات إلى "بلد الظلمات". سحبها عالم الآثار من الغبار بحيطة فائقة، وأعاد تركيبها، وتقويمها من جديد. فراحت أصواتها – وهي محمولة على سطح المياه التي بعثتها إلى الحياة – تسقسق من جديد كأشرعة في مهبّ رياح مغامرة تعود إلى عدّة آلاف من السنين. كان من أكثر اللُقى إدهاشاً قيثارة، محفوظة حالياً في المتحف "البريطاني". كانت قد فقدت أوتارها، ونهب السارقون عوارضها المرصّعة بالمعادن الثمينة، لكنهم لم ينهبوا روحها إذا كانت تمثّل ببيرق النشاطات الاجتماعية للملك ورعاياه.

في الجانب الأول كانت الكنّارة ذات الطابع الرجولي والقتالي والحماسي، والباخوسي تحكي، بوساطة الصُور الملوّنة، المصوغة من الأصداف،

والعظام، وحجارة النضيد، ومن الحوّار الأحمر بخلفيّته اللازوردية، كيف دخلت الحرب التاريخ على أنغام الموسيقى، بعرباتها وجيوشها المكسوّة بالمعاطف وخوذ النحاس المطروق.

وعلى الجانب الآخر للكنّارة ثمة احتفاءٌ بثمار النصر الذي يتوّج المعركة. والملك، المرتدي محزماً ذا جدائل، يقدّم لأصحابه مأدبة، ويتذوّق مبتهجاً سحر الجعّة والنبيذ، وثمّة مغنيّة بشعرها الأسود المسدول كأن في صوتها قيثارة، ترافق أحد الموسيقيين. إنه لحنٌ شهواني مسكرٌ أكثر من المأدبة، يرسم فسيفساء الحبّ والعواطف. مما جعل الملك، المنتشي سعادةً، يتطاير مع أعلى النغمات...

ويستجيب لجمال هذه القيثارة، كما لو أنه صداها، ألقٌ آخر للأزمنة الغابرة تمثّله الكنارة الرائعة الموجودة حالياً في متحف بغداد.

ولقد زيّن صنّاع مهرة صندوق صداها بترصيعات مُلبّسة، وجمّلوه بالأصداف، والحوّار الأحمر، واللازوردي، والشرائط الذهبية، ونحتوا في مقدّمتها رأس ثور قويّ بلحية مجدولة، وقرونٍ مشيقة، تشبه هلالاً.

كانت الكنّارة الخلاّبة اللطيفة تراهن على الملوك في قصورهم، وعلى الآلهة في معابدها. وكان الكهنة يغذّونها بالأناشيد، والأغنيات، ويصوغون لها أدعية. وكان ذلك قلب مدينة أور النابض.

ولكونها كنّارة لطيفة، ومرحة أو شاكية، فقد كانت تستلهم أصواتها ذات النبرة الغليظة من أشداق الثيران الوحشية التي كانت تخور في أحراش القصب على ضفاف الأهوار، وكانت تستقي نغماتها من مشيتها الوئيدة. وكانت تستلهم نغماتها أيضاً، على نحوٍ ساحر.

كانت الأنغام الصافية تتفجّر كشلاّلات من أوتارها الملساء، ممجّدةً الريف الخصيب، وتتحد كلياً مع امتلاء الحياة الكونية.

لقد كانت روح سومر تتفتّح في الموسيقى تحت تأثير هذه الإيحاءات الطيبة توجّهت بطيئاً باتجاه شمال الموقع، ونظري مثبّت على الزقورة الحمراء الكبيرة لمدينة أور. وقفتُ مدهوشاً أمامها فهي- بارتفاعها البالغ عشرين متراً، وكتفها المتين، وأقدامها الراسخة في الأرض بينما يهيم رأسها بالآفاق- تسهر على المدينة كخفير وحيد ينهض من حلم. إنه حلم ملك فاضل جداً هو أور- نامو مؤسّس السُّلالة الثالثة (٢١١٢- ٢٠٩٤)، ثم حلم ابنه شولجي (٢٠٩٤- ٢٠٤٧).

إذ أراد هذان الملكان أن يطلقا من السهل إلى السماء أنشودة القرميد الوهّاجة التي كان بمستطاعي أن "أقرأها" الآن أيضاً.

قاومت هذه الزقورة البرج عواصف القرون، وتقلّبات الأجواء، والغزاة. ومع هذا لم يبق سوى طابقين من طوابقها الثلاثة، وكلّ منها يعلو الآخر تدريجياً، ثم إن المعبد الذي كان يتوّج هذه الطوابق، كأنه القبة السماوية بقرميده الأزرق المزخرف، اختفى كلياً.

على الرغم من الحرارة المشتدّة أكثر فأكثر، بدأت أصعد الدرجات الرئيسية المرممّة حديثا، ومررت تحت بقايا بوّابة ضخمة. هناك حيث يتصل سُلّمان جانبيان. وحين وقفت على المصطبة كان لناظريَّ أن يغزوا مسافة شاسعة. في الجنوب الغربي يرتفع تلّ إيريدو، المدينة العالية، وقرية تل العبيد في الشمال الغربي.

وفي أسفل مكان وقوفي كانت تمتد خرائب المدينة القديمة: معبد الإله القمر، نانا، إله الليالي، مسكن الكاهنة العظمى، وهيكل الآلهة نينغال زوج الإله نانا، كما تمتد صروح عديدة أخرى.

على أطراف السور المقدّس، قرب المقابر، ينتصب ضريح مع قِبَبه الحادّة، ودرجه العجيب...

في صمت شهر أيّار، المائج كما الصحراء، بدا لي أنني أسمع همساً

موسيقياً. أكان هذا صوت الريح؟ أيهمس النور خفيةً؟ أم أن أغنية خافتة تنبعث من قيثارات مخبوءة وراء الخرائب؟.

النغم القريب يعلو وينخفض، ويولد من جديد، ويتعاظم شيئاً فشيئاً، وينتشر حول المدينة وبحر الرمال، يشبه الدوائر المنداحة التي ترسمها تموُجات مركب. يحملني إلى حدود عالم عجائبي، إلى نهاية الدائرة... هكذا كان يعيش أُمراء أُور الذين بلغ مصيرهم ذروته فيما بين الأرض والسماء، والقحط والامتلاء.

أور- نامو المُشرِّع الذي أصدر أقدم مجموعة قوانين معروفة، والبنّاء الحامل عصا المساحة. فقد رمم الأسوار العالية المتألِّقة تألُّق جبل، وبنى معابد أور. وجمّل عاصمته، مجهّزاً ميناءين تجاريين على مياه زرقاء لازورديّة. كان شولجي، المحارب اليقظ، والمصلح، والدبلوماسي الناعم، ومحبّ الآداب، حاذقاً في توسيع إمبراطوريته، وقيادتها، وتحديثها. الإمبراطورية التي اكتملت اكتمال صيفٍ جميل. فالشعراء والموسيقيون غنّوا أناشيد إكراماً للملك المعظّم، مجّدوا طبعه اللطيف الجذّاب، وإدراكه الواسع، وحكمته، وامتدحوا مآثره الرياضية أو المعمارية.

رغبت أن أحس من جديد بنبضات قلب هؤلاء الكبار المغامرين بأرواحهم. واليوم ألا يرنُّ اسم إيبي- سين، حفيد شولجي، وآخر ملك من السلالة الثالثة، كأنه صدى مسرحية منسيّة؟

ما كاد يكتمل عامان بعد وصله إلى العرش حتى بدأت الإمبراطورية تتفتّت، وتنكمش كجلدٍ متقلِّص وانفصلت عنها المدن الواحدة تلو الأخرى. على حين أن التضخم والفاقة كانا يتعاظمان في العاصمة البائسة أور. ودخل ضابط من النسل الآكادي لا السومري، هو إيشبي إيرا في العصيان، واضعاً تحت سلطته أودية دجلة والفرات.

وذات يوم من عام ٢٠٠٤ قبل الميلاد شعر إيبي- سين بقدوم نهاية عهده

البالغ حدّه، كانت العزلة تعصر حلقه كأنها حبل. وبغية تهدئة فؤاده، والإمساك بتاريخ كان يتناءى موشكاً على الغرق في العدم، دعا موسيقيّيه. أصابعهم المتوتّرة كانت هائجة، والكنّارات التي عزف عليها بعمق الإحساس، كانت تزفر، وتتأوّه، وتبكي... فخرج الملك من القصر، يمتلكه شعور مسبق بأن شيئاً ما سيحدث. رفع بصره صوب السماء الداكنة حيث تتسارع الغيوم كجيش من العساكر. كان البرق يرسم تعرّجات بنفسجية، والريح تزمجر.

كانت موجة عارمة من العيلاميين والمارتو -التسمية التي خلعها السومريون على العموريين الذين كانوا يعيشون شرق وادي الفرات وفي سورية- قد اندفعت بغليان صوب ضواحي المدينة. إذ هدر الرعد، وتبعته طقطقة هائلة شبيهة بانهيار العالم. ثم ساد صمت رهيب، وهبط ليلٌ حالك كالدخان على المدينة المدمّرة، وتوارى القمر.

وهبّت عاصفة ألم ٍومعاناة في صدر إيبي- سين، فقرر أن يتحمّل مصيره المأساوي حتى النهاية، مستسلماً، كقشّة واهية، لتيار مياه المنفى ومرارته. بعد هذه النكبة بزمن قصير، عاد القمر يزرع قرنه رأس الزقورة. ومثل نسمة خفيفة، شفت الموسيقى المحاربين الجرحى، وهدأت قلوبهم. ثمة مرثية، كتبها شاعر سومري، مقروءة بصيغة الندب، تروي- للذكرى- قصة سقوط أُور التي تعلن نهاية الحياة السياسية، لا نهاية التقاليد الأدبية في سومر. وكانت المرثية موجّهة إلى الإلهة نينغال:

"أيتها السيدة الفاضلة، التي تم هدم مدينتها، كيف يمكنك الاستمرار في الوجود! فمدينتك آلت إلى حقل من الخرائب، ولم تعودي سيّدتها. ولم تعودي ملكة شعبك الذي سُيق إلى التّهلكة. حتى إن دموعك غدت دموعاً غريبة، وأرضك لا تبكي! لأنها كما لو انقسمت -آحاداً- أبقت فمها مغلقاً؛ لقد

تحوّلت مدينتك إلى حقل من خراب؛ فكيف تستطيعين البقاء!
وكيف أمكن لقلبك– وقد سلب مقامك– أن يخذلك! فأور
المزار راحت في مهبّ الريح"(١٠).

(ورد الشاهد في سومر، منشورات، Time Life
أمستردام، ١٩٩٣ ص١٤٦).

ثم نهضت المدينة بعد ذلك خارجة من الفوضى. إلا أنها لم تستعد مقامها كعاصمة لأن العاصمة انتقلت فيما بعد إلى مدينة إيزين الواقعة في الشمال، لكنّ أور ظلّت لفتره طويلة مركزاً دينياً وثقافياً بالغ الأهمية.

لم أشعر، وأنا غارق في هذا الماضي، بانقضاء العصر. فها هو الأفق مصطبغ بألوان من ياقوت، وذهب، وأحمر قانٍ، وأخضر فاتح. نزلت سُلّم الزقورة الإمبراطوري. ورحت أجول - مثل روبنسون كروزو في جزيرته - على المكان، فوجدت لذّة غريبة في بقائي إلى هذا الوقت المتأخر وسط قواعد قصور مهدّمة وأساساتها. إذ كنت أتعثّر أحياناً بقطع القرميد المكسورة. وكنت ألمح كل ما يباغتني: ها هنا غراب، طائر الفيضان، يجثم بجناحه الأخرس ضمن حفرة في الأرض، وهناك ثعلب أغبر يخرج من خندق ويولّي هارباً في سحابة من الغبار.

كانت تلك المرّة الأولى في حياتي التي أجد فيها نفسي –ساعة الغروب– على هضبةٍ معزولة، لكنني لم أكن خائفاً، لأن ليلاً مخملياً منيراً بدأ يحلّ مرتعشاً على جلدي. إنه أوان النجوم والقمر الذي يسود الخرائب، وضوءه المزرقّ والأبيض الحليبي يُلامس الزقورة ملامسة لطيفة، ويظلّل حوافّها ليعيدها إلى ما يقرب الخيال. كانت مقطوعة من اللحن الذي سبق أن سمعته، تخفق دوماً في الهواء. توقظ بنعومة أُذني الداخلية. إنه لحني الخاص، جاء يوسّع جنبات قلبي، ويجدّد شبابه أربعة آلاف عام. أغمضت عينيّ واستسلمت لشعور بالسلام والسكينة.



كنارة مدينة أور

٩

حمورابي، "ملك القانون"

تركتُ منطقة الجنوب هذه، بنورها الوضاء، وأرضها المغمورة بماض زاهر، ومُدُنها الميتة التي بدت لي أحياناً كأنها أشباح. ما أردتُ رسمها، فقد سبق ان رُسمت مراراً، بل أردتُ ان أقص رحلتي، وانطباعاتي. فخلال تجولي في هذا العالم الذي لم يتغير منذ آلاف السنين، تملكني شعور بأنني هربتُ من الزمن.

من أور سلكت الطريق الصاعدة حتى الحلة، المدينة العارمة بالحركة، والتي وهبتها الطبيعة بُحيْرة رائعة، خصبة. وفي نهايتها، سلكت درباً فرعية، وقدت سيارتي باتجاه مدينة بابل الواقعة على بُعد عشرة كيلومترات تقريباً شمال مدينة الحلّة.

بابليون في اللغة اليونانية، وباب ـ إيلي في الأكادية... أحييت في نفسي هذا الاسم الأسطوري وأنا ألفظه بهدوء. أنه طري وساحر كينبوع، وهو مفعم بالحياة كواحةٍ من النخيل. لقد بجلّه ملوك عظماء. أجل! أو لم يُنر الشرق خلال ما يزيد على ألفي سنة؟ وكان ما يزال يشع في ذاكرة البشر إشاع جمرة زرقاء.

يعود أصل بابل الى سحيق الأزمان. حيث تحولت المقاطعة المأهولة بالساميين، الى مدينة قوّية. ونهضت في عهد الملك حمورابي الذي حكم من عام ١٧٩٢ حتى عام ١٧٥٠ قبل الميلاد. وغدت عاصمة دينية، وسياسية، وفكرية. وبفضل موقعها المتميز، في شمال السهل الطمي، تطورت كذلك وصارت مركزاً تجارياً مزدهراً، وسيطرت على الطريق التي

تربط الصين بالبحر المتوسط، مارة عبر آسيا الوسطى، وفارس وبلاد الرافدين.

أبصرتُ بعد حين مجموعة واسعة من التلال الصغيرة الصامتة، يغطيها عشب ربيعي كثيف. وكانت ترعى فيها قطعان بدت كأنها هنا منذ آلاف السنين. أما بساتين النخيل فكانت تتموج على صفحة السماء بلونها الزمردي ـ الريحاني، كأنها غابة من نجوم البحر.

وقفت قرب أكمة ترابية. كنت أعلم أنه لم يبق أي أثر لمدينة حمورابي التي أغرقها فيض الحقل المائي، لكنني مع هذا كنت أحلم بها.

كانت الحرارة ـ كالمعتاد في هذا الفصل ـ حارقة، لذا أسرعت الى ضفة الفرات. تنزهت تحت أشجار الحور التي تحف الشاطئ الحالم. كانت بعض العصافير تغرد على الأفنان المتدلية. قادتني زغاريدها، وهي رابطها مع البشر، الى ملك بابل. كان في لهذا الملك جانب قاحل وآخر مُشمس.

كان الملك قد وضع خطاه على طريق النهر ذاتها، وسمع أنغام الطيور وهمسات النهر الذي من دونه لم يكن قط لا بداية ولا نهاية. لكن الأمواج المعطرة بالعنبر لم تكن قد شوشت تاريخه.

تصورت بسهولة وجه حمورابي، ليس لأنني استسلمت لخيال خصب كخصوبة السهل، بل بفضل تمثال مؤثر من الصخر البركاني، كنت قد شاهدته في متحف اللوفر.

ها هو الملك، وقد شاخ، وبدا عليه النحول، يضع على رأسه قلنسوة دائرية، عالية الأطراف، ولحيته مجدولة بعناية. وتشد شفتيه الرقيقتين زمّة شديدة وتحت الحاجبين المشذبين المتصلين كسنبلتين مرتعشتين، عينان نجلاوان تبدوان وكأنهما تنظران، من اعالي القرون الغابرة، برؤية رئيس، وحكمته النيرة، ويفطنة خبير محنك.

انبثقت صورة حمورابي اليقظة والسخية من الرسائل المائة والخمسين

التي عثر عليها في مدينة لرسا وفي مدن اخرى من البلاد وتنم هذه الرسائل الموجهة الى كبار الوجهاء عما يبديه الملك من فائدة عملية وعناية إزاء مرؤوسيه.

حوالي عام ١٧٩٢ ورث حمورابي من ابيه، في الخامسة والعشرين امبراطورية متواضعة. فأمسك بزمام الامور وتسلم مقاليد السلطة وما لبث طويلاً حتى جرد سيفه، وغزا مدينتي اوروك وإيزين الواقعتين جنوب نيبور. وبعد ذلك لم تسجل سنوات حكمه اية معركة . إذ امضى الملك عقدين هادئين في تطوير بابل. فَشيَّدَ سواراً وجمل المعابد وحفر قنوات للري.

عام ١٧٦٣ ـ اثر تردي العلاقات مع مدينة لرسا، خرج حمورابي الى الحرب من جديد فقضى على اصدقائه وحلفائه القدامى الواحد بعد الاخر. حيث استولى على اربع وعشرين مدينة وكأنه يستولي على اكواخ من القصب فاخضعها وقهر المناطق كلها. وعندئذ اخمد المعارك.

وتنفست اغلب انحاء البلاد الصعداء وقد باتت من جديد موحدة تحت صولجان الملك المنتصر وبعد حين تحت راية قانونه المكتوب. وعزا حمورابي نجاحاته للاله مردوخ الذي سوف يزيح تدريجياً الاله السومري إنليل ويغدو الاله الاول في بابل.

منذئذ عكف الملك على تنظيم امبراطوريته التي شيدها خلال اقل من عشر سنوات وعلى تقويتها اقتصادياً، كما سعى الى خلق الشعور الوطني من جديد في نفوس رعاياه.

وبعد ان تعاظمت خبرته أمر بنقش "قانون" على مسلة اسطوانية جميلة من البازلت ارتفاعها متران وثلاثون سنتمتراً نُحتَتْ عدة نماذج منها وتم نصبها في مختلف مدن المملكة.

وفي عام ١٩٠١ عثر علماء الاثار الفرنسيون على واحدة من هذه المسلات في مدينة سوس كان العلاميون قد حملوها الى هذه المدينة

كغنيمة حرب حتى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد فنقلها هؤلاء العلماء الى متحف (لوفر) في باريس.

ليست هذه الوثيقة في شكلها ومضمونها قانوناً مدنياً كالذي سنّه نابوليون، بل هي تجميع لأحكام عدلية متكاملة الى حد ما على طريقة اللوائح السومرية التي ابتغت ان تقلد نظام العالم فبعض المراسيم كانت صادرة سابقاً او مستعارة من الاعراف. ومنذ زمن طويل كانت الكتابة تحتل مكانة كبيرة في بلاد الرافدين. وكان ثمة "قوانين" مكتوبة سابقاً. فقد تم اكتشاف قانون اور ـ نامو مؤسس السلالة الثالثة في اور المنقوش على ألواح من الصلصال في مدينته وفي خرائب نيبور.

غير انه لم يكن لقانون من القوانين مثل هذه العظمة التي لقانون حمورابي، ولم يدخل اي منها ذلك العدد من الاصلاحات التي ادخلها.

اجل! ان في قمة المسلة تمثال حمورابي يقف مصلياً يلبس ثوباً مزيناً بالجوخ يرفع يده اليمنى صوب اله الشمس والعدل، (الشمس) أملى عليه قانونه الضروري. في مقدمة المسلة كان يعلن النص بصوت مرتفع ويقص حكاية غزواته، وفضائل افعاله:

"هذا هو اسمي حمورابي، الأمير الورع الذي يُمجّد الالهة، من اجل نشر القانون في البلاد والقضاء على السيئ والمنحرف، ومن اجل الا يظلم القوي الضعيف وبغية الظهور للشعب كالشمس، وإنارة البلاد (هذا هو اسمي) الذي نطقه "آنو" و"إنليل" لضمان سعادة الناس"

(قانون حمورابي، ترجمة اندرية فينيه، منشورات دار Cerf، ١٩٩٦، ص٣١)

ان هذا القانون الذي قسمه الناشرون المعاصرون الى ٢٨٢ مادة،

والمكتوب بالخط المسماري باللغة الاكادية، وبصيغة شرطية، يرسم لوحة عن المجتمع البابلي.

كان هذا المجتمع مقسوماً الى ثلاث طبقات:

ـ الناس الاحرار (أوليو) وهم المواطنون المتمتعون بكامل الحقوق، كالأطباء والحرفيين، والصناع، والعساكر.

ـ التابعون (موشكنو) الذين كان يتمتعون ببعض الامتيازات مقابل القيام بخدمات، واعمال سخرة لصالح الدولة.

ـ العبيد (واردو) او اسفل السلم الاجتماعي كسجناء الحرب والافراد العاجزين عن تسديد ديونهم لكن وضعهم لم يكن مجرداً من الامل فقد كانت لهم شخصية شرعية. ذلك ان عبداً (واردوم) حليق الرأس حامل خصلة شَعر كان بإمكانه ان يتزوج من إمرأة حرة وينجب اولاداً احراراً ويكسب ثروات. ومع ذلك كان يتعرض لعقوبات قاسية في حال الفرار.

وكان القانون التجاري لصالح قوة التجار ويولي اهمية عالية للشاهد وللعقد في عملية التبادل:

"اذا قدم قرضاً (من الشعير او من الفضة) من دون (عقد او شاهد)، فسوف يخسر كل شيء معطى"

(المادة ٦٥)

ويعالج القانون الخاص بالأسرة ذات النمط الأبوي بوصفها قاعدة المجتمع موضوعات شتى: الارث، والتبني، ووضع الزوج التابعة لزوجها، لكنها تمتلك شخصية شرعية بصفتها مواطنة يسمح لها بتلقي هبة تسجل باسمها بموجب عقد وبالسهر على مصالحها بعد وفاة زوجها:

"إذا اعطى رجل زوجته قطعة ارض، او بستاناً، او بيتاً او اثاثاً، واذا قدم لها وثيقة مختومة، فبعد موته ليس من حق اولاده ان

يطالبوها بما اعطاه اياها. وفي مستطاع الام ان تترك إرثها
لولدها المفضل ولكنها لا تتمكن من نقله الى غريب"
(المادة ١٥٠)

كانت عقوبة الاغتصاب قاسية جداً وغشيان المحارم ممنوعاً تحت طائلة القصاص مما لا يتطابق مع ما كانت عليه الحال في مصر حيث كان الفرعون يتزوج من ابنته البكر. (المادة ١٥٤).

في القانون الجزائي صرح حمورابي انه لا يمكن ادانة فرد من دون برهان. كان همه ان يكشف النيّة الاجرامية وقد وضع عقوبات تتناسب مع الاخطاء المرتكبة، لكنها كانت تتباين بحسب مقام الضحية. واقرّ بالظروف المخففة للحكم. كما اكد مفهوما خاصاً لتعويض الاضرار وظهر قانون العقوبة بالمثل، الذي اخذ به في الكتاب المقدس لاحقاً.

"اذا قلع احد عين انسان حر، فسوف تقلع عينه"
(المادة ١٩٧)

وكانت العقوبات تطبق أيضاً على حوادث عائدة الى الاهمال:

"اذا عمّر بنّاء بيتاً لأحد الناس، ولم يدعم بناءه، واذا تهدم
البيت الذي بناه، ومات صاحبه فسوف يقتل هذا البنّاء"
(المادة ٢٢٩)

وحينما كانت تنعدم البراهين العقلية كان الملك يلجأ الى حلف اليمين وتحكيم الالهة، لكنه لم يكن يستخدم التعذيب.

اراد حمورابي من خلال سهره على كتابة "قانونه" ان ينظم الحياة السياسية والاجتماعية في الامبراطورية. فهل كان يحاول ان يصنع وعي وإرادة لرعاياه رعاياه وارادتهم؟ ام ان يكتشف اغوار النفس الشعبية؟ فالحرية لم تكن تعني ان يترك الانسان نفسه لقياد الغرائز، والنوازع،

والاهواء. فلا مجتمع من دون قانون عند مواطني بلد منظم ولا دولة من دون شرائع تضمن هي نفسها العقوبات على الجرائم.

هل كان حمورابي ملكاً عادلاً؟ وشفوقاً؟لقد ارسى دعائم الشرع في المدينة واقام بعض المساواة بين مختلف الافراد امام القانون وهو، وان لم يضع نهاية للامتيازات العائدة الى النسب والوظيفة، لم يحط قَطْ من شأن اصوات رعاياه من الدرجة الثانية الذين اثروا الى حد ما في سياسته فقد حمى الملك الضعفاء، والذين لا سند لهم، والمظلومين، واليتامى، والنساء، والارامل، حماهم من البؤس، وسوء المعاملة، والاهمال، وتعاسة الطلاق. ورفض تهميشهم واضعافهم وهذ ما لم تحققه دوماً الاوطان الحديثة، او التي تدعى الحضارة. كما اظهر اهتماماً بالمساواة بين الافراد. فالمهم لم يكن تحقيق العدالة، والحرية لجميع الناس، اذ كان في المجتمع عبيد وكان الحق، والكرامة، واحترام حقوق كل فرد وفق مستواه الاجتماعي.

انها عدالة واقعية، تاريخية، مرتبطة بقواعدها، وثقافتها، ومجتمعها الديني حتى العمق والقاسي احياناً، بطبقاته المتمايزة حيث يزداد الاغنياء غنىً وتزداد ديون الفقراء مثلما يحدث الان. لكن كان المحتالون الكبار للأسف ينزلون من بين ثغرات القانون.

ربما كانت هذه العدالة اثمن من الوفاء والوفرة اللتين كان حمورابي يفتخر بتقديمها الى رعاياه، لأنها تحقق لهم الامن والسعادة.

لكن يا للاسى ! لم يكن يتم الرجوع الى هذا القانون ذي القيم الكونية العامة والذي كان من المفترض ان يكون هادياً لسكان المدن ولأمرائها اللاحقين.

هل يوجد في عصرنا سواء في الشرق الاوسط ام في اي مكان اخر قادة كثر استوحوا شيئاً من قانون حمورابي؟ وهل في مستطاعهم ان يعلنوا ما اعلنه ملك بابل حيث قال:

"الالهة العظيمة سمتني، وانا وحدي الراعي المنقذ ذو الصولجان القويم. يمتد ظلّي المناسب الموائم على مدينتي. وقد ضممت الى صدري شعب بلاد سومر واكاد. وبفضل حمايتي عرفوا رغد العيش، اذ لم اتوان عن حكمهم في جوٍّ من السلام. وبحكمتي حميتهم"

(المسلة).

لم يكن قانون حمورابي مجرد وسيلة تربوية او مجرد شاهد على تاريخ بابل السياسي والاجتماعي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

انه بالاحرى عقد شرعي، وعمل ادبي بأسلوب موجز مؤنق فخلال الف عام ظل نصه المصوغ بعناية نموذجاً لمدارس بلاد الرافدين التي أعيد نسخه مرات كثيرة وهي تُعد نموذج فيمابعد للطلاب المتخصصين باللغة ففيه تبلغ اللغة الاكادية، التي تجمع بين القوة والطراوة، كمالها المعتاد على مستوى التركيب والالفاظ ناهيك عن ان جمال الكتابة المسماة بالمسمارية جعل منها عملاً فنياً.

تمت صياغة هذا القانون كأنشودة تمجد الملك الذي اخذ من جديد لقب "ملك المناطق الاربع" الملك الذي وجَّهَ البلاد على الطريق الصحيحة، وجعل السلام يُخيّم عليها، ولامس اعماق الحكمة. وكان على الدوام يعلن فَلاحهُ في حياته وفي عمله.

ومع ان حمورابي لم يتفوق ابداً على سابقيه اللامعين سرجون، ونارام ـ سين، وشولجي ولم يصبح بطلاً اسطورياً، فقد كان الملك القوي وشمس بابل.

فماذا يعني اسمه المُعطّر بالشّذى، لإنسان القرن العشرين؟ ألن يبقى اسمه على المدى بفضل هذا القانون المشهور الذي ألهَم الشرق القديم كله، كما ألهم الغرب عبر اليونان وروما؟



مسلة حمورابي

١٠

بهاء مدينة نينوى

كان الربيع الرائع والعابر قد أشرق على رحلتي كلها، يتفتح أزهاراً وياسمين، ويصبغ الخوخ بساتين بغداد بالأحمر الوردي. وكان يشرق في زوايا أقل الأماكن شجراً. وفي خباياها. كما كان يرافق وجبات عشاء العائلة على ضوء النهار، والنزهات الطويلة على ضفاف دجلة بعد المغيب.

في نهاية شهر أيار عام ١٩٨٠، انهالت على المدينة شمس حارقة، كأنها لوحا من النحاس، وارتفع مؤشر الحرارةبالغاً في الظل خمسين درجة مئوية. فألهبت الحرارة القوية الساحات والشوارع.

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر، كان الموظفون العائدون من اعمالهم يشبهون من استحم بالنار. وتنزلق النساء بظهور سريع، على طول الشرفات. فيتحول سواد أثوابهن الغارق في الانوار إلى لون لامع....

في شقتي لم تعد الجدران تتنفس. وما كان عندي مكيّف للحرارة ماخلا مروحة بائسة تعي عدم كفايتها، و تدور طانّة وسط غرفة الاستقبال. عند حلول الليل نمت في العراء على سطح الدار. ولما أفقت كنت مبللاً بالعرق. لمست شعري فكان رطباً لاصقاً. فمنذ اشرقت الشمس في الخامسة،

توجهت نحوي،كذئبةعملاقة، واستعدت لإحراقي. فهرعت بسرعة نازلاً السلم الذي يقود إلي المطبخ لأتناول طعام الإفطار.

خلال عدة أيام بلغت المصيبة أقصاها، إذ انهالت عاصفة رملية على بغداد: فشكمتها، و خنقتها في ستائرها الخافقة. مما جعلني ألزم غرفتي.... قضيت أتعس أسبوع! كنت أقرأ واكتب، لكني كنت أشعر بالعزلة، يتملكني

الحنين. حيث كُنت اسمع في داخلي غناء جبال الشمال العذب. فلماذا أتوانى إلى هذا الحد عن الأستجابة لندائها؟

ذات صباح، والحياة تنبض أكثر حمية في صدْغيَّ،سلكت طريق الموصل. قبل ان أصل مدينة شرقاط، اتخذت شارعاً فرعياِ يمر أمام مدينة آشور، مهد الآشوريين و عاصمتهم الأولى. كنت قد زرتها منذ عدة سنوات، توقفت لحظة. هوذا ينبعث في أثر ذكريات ذلك العصر.....

كانت المدينة جاثمة على أكمة صخرية، وتطل على دجلة من الجانب الشرقي. حيّيت تلاً ضخماًمن التراب ما هو إلا الزقورة المبنية لتمجيد إله آشور.

من هم الآشوريون؟ إنهم شعب سامي كان في البداية تابعاً لحكام لسومر. وفى حوالي عام ٢٠٠٠ قبل المسيح، شرعت آشور، المدينة– الدولة في بلادالرافدين، بالغزو، وعكفت على تجارة البضائع الثمينة و اعطت اسم إلهها للملكة.

في القرن الثامن عشر، سيطر شمشي– آدّاد الأول على بلاد الرافدين العليا، وعلى مملكة ماري. أدخل بعدئذ الآشوريون، تحت رقابة ملوك بابلو ميتاني، الساكنين في آسيا الداخلية.

أشرقت صورتهم كما تشرق الشمس، ورسخت قوتهم في القرن الرابع عشر، الذي يمثل مرحلة الامبراطورية الأولى.

بغية مواجهة الآراميين، بدو الغرب القاطنين على طول نهر الفرات، وغزوات "البرابرة" الآخرين، أسس الآشوريون جيشاً قوياً، ثم انطلقوا في سياسة الغزو، ومع إقلاع عرباتهم، وتشريع رماحم وسيوفهم، وتصويب أقواسهم، وحرابهم، تحققت أمجادهم على حساب البابليين والآورانيين (منطقة أرمينيا) القاطنين حول بحيرة (وان) والميديين والمقيمين على الهضبة الإيرانية.

في القرن التاسع، كونت آشور إمبراطورية ثانية ينورها قرص مجنح يُجسد رمزا سماويا. تنامت فروعها رويدا رويدا كأرزة ممتدة، من الخليج إلى جبال طورس، و من جبال زاغروس إلى البحر الأبيض المتوسط. لكن نذر العاصفة كانت تزمجر في الافق... ففي عام ٦١٢ تهاوت الشجرة تحت ضربات الميديين و البابليين، وغاصت بين ألسنة اللهيب، لم أركز، في تلك اللحظة على المصير المأساوي للآشوريين. ثم سرت باتجاه الموصل، المدينة الشمالية الكبيرة المحفوفة بالمنارات و الأبراج الكنائس. تشرف قببها على السطوح الرمادية المنبسطة.

قمت بدراساتي ها هنا لمدة تزيد على عشر سنوات. حيث أتخمتني الكتب والصور. وغدا ملوك نينوى القديمة مثل سرجون الثاني، وسنحاريب، وأسرحدون، وآشور بانيبال، أبطالا في نظري.

مرة ثانية ارتأيت أن أتبع خطاهم في مدينتهم ذائعة الصيت والواقعة تماماًمقابل الموصل، على الضفة الشرقية لنهر دجلة.

حالياً، يتضمن الموقع تل كويونجيل، وتل النبي يونس، مكان الحج المخصص للنبي يونس الذي جاء لهداية أهل نينوى المرعبين، بحسب رواية العهد القديم. كانت ظلال الثيران المجنحة العملاقة، حارسة تاريخ كامل، مايزال يُطل على الخرائب.

كانت هضبة ترابية تغطي أسوار نينوى، تنتأ أبوابها الآخذة شكل الكثبان. قبل عدة سنوات قررت مديرية الآثار العراقية بناء جزء من سورالمدينة الفتان، وبعض الابواب الأثرية، وذلك باستخدام القرميد المجفف المغطى بالحجارة الصهباء، فأخذت نينوى، الرمز المتهدم، لونا وحياة، مسترجعة مكانتها في الأفق. كانت، وهي تتكيء بلطف، تشاهد نهر دجلة مستذكرة زمن إزدهارها....

نـيـنـوى، المدينـة القـويـة التـي كـانت تـعـصـر أسوداً بين ذراعيـهـا... ربمـا استقت اسمها من نين الهة الحب، اسمها العذب كالمداعبة، وكالقصيدة، ممشوق مثـل مـخلب. بـعـد تـأسيسهـا المتـواضـع فـي الألـف السادسة قبل الميلاد، غدت، في الألف الثانية، مركزاً للآشورين.

بين عام ٧٠٥، ٦٨١ تعاظمت المدينة المحوطة بأسوار جديدة، ولما تم جر المياه إليها، انتصبت انتصاب الرجل الحاكم سنحاريب. هذا الحاكم كان قد ترك خرساباد، عاصمة ابيه سرجون الذي مات في الحرب، واستقر فيها وأصبحت عاصمة للامبراطورية.

أراد الملك الحاذق سنحاريب، ذو الخيال الواسع، المولع بالتقدم التقني، أن يترك بصمته على الزمن، وأن يُخلّد ذكراه.

لذا أعاد بناء المعابد، موطن الأسرار الإلهية. وشَيَّد قصراً هو "القصر الذي لا نظير له"، والأكثر روعة، واتساعاًمن أي قصر على وجه المعمورة.

كان هذا القصر المبني من القرميد والحجارة، والخشب، والمعدن الثمين، الساطع كالنهار، يشع بالأضواء الأضواء، تفوح منه الأنغام، والعطور! وكان يأخذ دور مرآة للقوة الملكية، شامخاً كعماد الكون!

إن "سنحاريب" جمع فيه، بفضل انتصارات جيوشه، اجمل الكنوز إذ يقول:

"وضعت يدى فوق ثروات الشعوب،
كما لو كانت «عش»
وكما يجمع بيض مهجور،
جمعت انا كل الارض
ولا فاتح فم ولا مصفصف"
(سفر أشيعا١٠، ١٤).

لقد أعطى ملك للعاصمة نينوى، المركز المتحضر العظيم، حظوتها من الذهب والفضة والنحاس، لأنها كانت واقعة في نقطة تقاطع الطرق التجارية. إذ كان يجذب التجار إليها وعَددهم كان يربو على عدد نجوم السماء. هؤلاء التجار اكتشفوا بالمقارنة مع دويلات الشرق الصغيرة العاتمة، الملفوفة بالغبار، ودولة مملكة يهوذا، إسرائيل واليونان هو أن نينوى كانت مدينة كبرى؛ حيث" كان ينبغي قضاء ثلاثة أيام لعبورها".(سفر يونان،٣، ١–٣).

رفعت رأسي: كانت السماء هي ذاتها بلونها الأزرق الياقوتي المشوب بالرمادي، السماء التي تأملها سنحاريب في زمانه.

نزلت من فوق تل كويونجيك مسرعاً. كانت أزهار الربيع، والكبوب السائل تملأ المكان.رأيت البقايا لـ"القصر الذي لا نظير له"، السائبة، للأسف، أمام الحيوانات، وامام كل غادٍ و رائح. فرحت أتنزه، متأملاً تحت سقفه.

في منتصف الستينيات، أستأنف علماء الآثار، التنقيبات في قاعة العرش، التي كان قد شرع فيها عام ١٨٤٦، الإنكليزي هينري أوستن لايار. حول مكان إلى متحف يعرض للزائرين بعض أهم اللوحات الجدارية التي عثرعليها في الموقع، والتي أعطت الشهرة للفن الآشوري.

توجهت، مدفوعا بالبحث الدائب عن القصور القديمة المهجورة، أوبالأحرى، عن بقاياها، صوب شمال الهضبة. كان آشور بانيبال، حفيدسنحاريب قد شَيّد قصره هناك. لكن يا للأسف، لم يبق منه أي أثر.

هذا الفارس المتعلم، ذو البصيرة النيّرة، زين قصره بلوحات جدارية تخطف الأعجاب، تمثل مشاهد من صيد الأسود (وتوجد حالياً في المتحف البريطاني). كما أغناه بمكتبة تحتوي قرابة ٣٠٠٠٠ لويحة مسمارية،

منسوخة و مصنفة وفق نظام متميز وكان قد جلبت قسم منها من مدارس بابل و بيوتها.

تتضمن هذه الألواح مواثيق، ومراسيم، وهبات، وتقارير. وتتكون من نصوص طبيعتها دينية، وأدبية، وسياسية، تخبر عن نشاطات الملك وحاشيته. بفضل هذه المكتبة اكتشف علماء الآثار ثراء الحياة الذهنية عند الآشوريين، وفضولهم العقلي الخارق، تعطشهم للمعرفة، وعنايتهم بأن يكتبوا على الصلصال تاريخهم، ويحفظوا دينهم، وينقذوا من الضياع تراث سومر وأكاد. من أجل ذلك أجزلت لهم الشكر امتناناً.

تابعت تجوالي على التل. فرأيت الحفر والصدوع في كل مكان، ورحت أُسائل نفسي أين كانت تختبئ الحدائق الزاهرة، والبساتين الوفيرة التي غرسها سنحاريب حول القصر والمدينة، تهبه راحة النفس، ومتعته الملكية.لم يبقى منها أثر هي أيضاً. فأعاد خيالي رسمها اعتماداً على ما قرأته عن أوصافها في إحدى الألواح المسمارية:

"زرعت فيها بساتين أقصاب، وأطلقت بينها طيور البلشون، والخنازير البرية، والثيران الوحشية (....). ازدهرت الأقصاب كثيراً، بنت طيور السماء والبلشون القادمة من الأقاصي، أعشاشها. وصار للخنازير البرية، والثيران الوحشية صغار كثر".

كان الملك يحب التنزه في حدائق الحيوان والنبات. كان يمضي بخطاه المريحة الواسعة في الممرات الوارفة، الوضاءة، الراعشة. كان يهتم بكل زهرة، ونبتة، شاكراً الآلهة على ما بعثته له من الأمطار لإنمائها. و كان يقف بفضول أمام "الشجرة التي تحمل الصوف"، أي شجيرة القطن التي كانت قد دخلت حديثاِ إلى امبراطورية آشور.

كانت تتجاوب مع بعضها الروائح والألوان وزقزقات العصافير. و عبر أشجار النخيل والصنوبر تهب نسمة طويلة دافئة، تداعب مداعبة لطيفة أزهار اليلك، ووجه سنحاريب المضوأ الذي كان ينسى معها الهموم والمتاعب. كانت بهجة مجهولة- لكن عارمة - تغزو قلب الملك. فيصد خادميه ويظل وحيدا في مركز هذا العالم الجليل في نظره. فكل شيء كان يدهشه كأنه في الفجر الأول للتاريخ و كل شيء كان يبعث فيه الإعجاب!

كان وشاح خمري يخفق على الشفق. وكانت المساء قد بدأت تشحب، وظلام المساء ينبسط على التل. نزلت شاطئ نهر خوسر الموازي لها من الجهة الجنوبية الغربية. بدا لي النهر الشحيح في حال من الاحتضار. فلا وجود للصيادين على سواحله و لا للأسماك. نظرت إليه مستنكراً. أولم يسهم في تموز، سنة ٦١٢، في هزيمة نينوى حينما فاض و فتح ثغرة في سورها؟ يالها من عاصمة بائسة، كانت على الدوام متَّهمة بالقسوة! لكن عنف الآخرين انهال عليها.

حاصرها الميديون القساة، والبابليون الحاسدون حصاراً هائجاً مجنوناً، دام ثلاثة أشهر، فهدموا أبراجها وأحرقوا معابدها وقصورها، نبشوا قبور ملوكها، ونهبوا كنوز منازلها، وسحقوا أطفالها كما تستحق الفراشات، أو بعثروهم على سفوح الجبال.....

في الشوارع لم يعد صوت الكنارات مسموعاً، بل حل محله صريرالعربات، وخبب الأحصنة، وصليل السيوف، صرخات اللوعة، وصوت الريح الهوجاء، تقصف العالم.

تقدمت نحو واحد من الابواب الأثرية حيث آلهب المدافعون عن المدينة أسمي مشاعر الشجاعة. فقد جاهدوا حتى النهاية من أجل المدينة التي بقيت رمز كبريائهم و حبهم. و سقطوا يزفرون ألمهم و يأسهم، ووجوههم

مصوبة باتجاه قبة السماء الصافية والمجهولة.

ثمة ضحية سقطت و يدها متصالبتان، تلامس بداية الزمن و نهايته، وكان الدم يسيل من جرحها المفتوح في الصدر فاغراً يسقي الأرض المباركة. بعد صباح ساطع جاء غروب يومٍ، ومدينة، وإمبراطورية هي إمبراطورية الآشوريين.

باغتتني كآبة حادة منزلقة في أعماق ذاتي.

أضاء حريق نينوى الشرق كُلّه. بريق وهجه لينطفئ، ذلك أن الصلصال (ألواح مسمارية) قد أنقذ ذكريات التاريخ.

لقد حررت الأسوار– وهي تتداعى– روح الآشوريين إلى الأبد.



المسلة السوداء - المتحف البريطاني

ملك اسرائيل ياهو يخضع كشلمناصر الثالث ملك آشور

١١

وجوه بلاد آشور

بعد حين من الزمن، وجدت نفسي في مدينة دهوك الواقعة على مسافة ستين كيلو متراً شمال الموصل، قرب سلسة جبلية تحمل الاسم نفسه. كانت مشهورة بتينها و اعنابها المعرشة المورقة، وبرمانها ذي الثمار المصقولة الناعمة بطعمها المزّ الشهي.

لم أنس االنقوش البارزة الصخرية الرائعة المنتصبة قرب قرية علناي المجاورة.

ذات عصر، صعدت ببطء باتجاه جبل بيخير، وبعد عشرين دقيقة من المشي، تأملت بعيني المرتعشتين تأثراً، تمثال الملك سنحاريب المنحوت في صخر. وقد نحت مرتين على كل لوحة صخرية. يقف أمام الآلهة الآشوريين التى تلبس تيجاناً عالية، وتبدو له جاثية أو راكبة على حيواناتها- الرموز. بدا لي أنه كان ينتظرني، لإحياء ذكرى إنتصار جميل يرن صداه الآن في داخلي.....

حل المساء، فتلاشت معالم التمثال في ضوء زهري، ثم غابت ودخل الماضي المفعم حياة، في العتمة الليلة.

خلال الأيام اللاحقة، انطلقت وراء آثار الآشوريين الذين بنوا القلاع، ونحتوا ألواحاً في حواف صخرية أخرى في ملاّميركي، وشرقاً في خنس-بافيان غير البعيدة عن مدينة عين سفني. فطبعوا بخاتمهم بلاد الرافدين العلّيا. انتعلت صنادلهم البيتية، ورحت- أنا المسافر المتحرر من كل شيء والذي لا يعرف الكلل- أجول في أراضيهم الوعرة الخصبة. تمتد جل مساحتها بين دجلة و رافد الزاب.

جُبْت الجبال والأودية، والهضاب والغابات، أجتزت المراعي تشقّها مجاري المياه العذبة، وخضت غمار أدغالها التي تطن بأصوات النحل وطيرانه المتموج، ووطأت قدماي مكان زمان منسيّ.

بحثت في كل مكان عن الآخر، عن بلاد آشور الزمن الغابر، بلاد آشور التي لا نراها لكنها ترتعش في الظلام. ألمْ تربطني بها آصرة الدم؟ ذكرت،وأنا أمشي، اسمها بمقاطعه الصامتة الزاهرة، اسمها المشحون بالألغاز. راقبت آثارخطاها المترعة باخبار القدماء. فقد سبق أن شيدت حضارة براقة استمرت أكثر من ألف عام، وما تزال مشاعلها مضيئة حتى الآن.

هذه الحضارة تحملني، و تُعليني مثلما اعلت أبناء بلاد الرافدين القدماء والمعاصرين. وتزيد في ذاتي امتداد تقاليدها الثرية، وانطلاقاتها التي لاتقاوم، و أحلامها السخية.

احتفظ العهد القديم بذكرى بلاد آشور الفتانة، وتحدّث ببلاغة عنها:

وزَنت أهولةُ من تحتي
و عشقت مُحبّيها آشور الأبطال
اللابسين الأسمانجوني
ولاةَ وشحناَ
كلهم شبّان شهوة
فرسان راكبون الخيل.

(حزيقال٢٣، ٦)

لكن وللأسف العهد القديم مبني، في أغلب الأحوال، على معطيات جزئية تحكمها المصادفة، يصف هذه القوة العظمى وصف عدو مخيف، بقناع قاس، لا يعرف الرحمة، ويجد فيها ملكة من الرعب، وجنوحاً إلى الغزو والنهب مصدريّ جمع الثروات.

يا لبلاد آشور المرعبة؟ لم تكن وحدها كذلك. ففي ذلك العصر البعيد، كانت الأوطان جميعاً تنساق أحياناً إلى أفعال متوحشة. ألم يذبح النبي إيليا ٤٥٠ نبيا من أبناء البعل؟ (سفر الملوك الأول، ١٨/ ٤٠). ألم ينصب ياهو ملك إسرائيل، أهرامين من رؤوس البشر على باب قصره؟ (الملوك الثاني ٨،١٠). و ماذا نقول اليوم في البلاد الذي ترتكب كثيراً من العنف والمجازر، وأفعال القتل و الإجرام؟

كان ينبغي انتظار منتصف القرن التاسع عشر حتى يعلو الحق لصالح بلد الآشوريين. وحتى تقال الحقيقة في النهاية. ذلك ان الدبلوماسيين الغربيين بول إيميل بوتا،و هنري أوستن لايارد، فيكتور بلاس، وأخرون، نزعوا بأيديهم المرتعشة ذلك القناع الدامي لبلاد أشور، واكتشفوا وجهها المؤثر، بلونه الذهبي. التقوا مع نار نظرتها، فالتهبوا حماساً من أجلها. تنشقوا عطرها المسكر، الذي يجمع رائحة البخور والعنبر. ورغبوا في الإحتفاظ بالملابس التي زيّنتها الحضارة.

لاحقوها في خرائب قصورها المزركشة بعناية فائقة، التي كانت تنصب في ماضي الزمان وسط منظر باسم تغطيه أزهار السرو، والتوت، والعرعر والفستق الحلبي.

أصغى هؤلاء المنقبون عن الماضي للأصوات المرتعشة التي كانت ما تزال تخرج من الألواح، والنقوش البارزة، وتحكي عن الأفعال السامية للأمراء، وسهر الجنود بخوذاتهم المدببة، وورع الكهنة بجلابيبهم الكتانية، وعن الجمال المتأصل في الخيول والأسود: وادهشهم العاج المنحوت بمهارة حيث تم اكتشافه في مدينة كالح، عاصمة الآشوريين الثانية.

في القرن العشرين، وجد علماء الآثار أيضاً لُقى ثمينة، وجواهر مرصعة، تشهد على مهارة الصناع، وعلى ذوقهم الهيف.

إن هناك تبايناً مابين وجهي بلاد آشور في الكائنات والمناظر: الوجه الذي صوره العهد القديم مغرياً لكنه عنيف ومتسلط، والوجه الذي اكتشف علماء الآثار أنه فتان نقي. وجهان يفضيان في نظري الى التكامل والمتمثل في شخصية سمير أميس، الملكة ذات الضفائر الذهبية. الملكة الذكية، رفيعة الذوق، والفارسة المقدام، التي فاقت بجمالها سيدات القصر جميعاً.

ويبدو ان اصل هذه الأسطورة كامن في أسم ساموراميات زوج الملك شمشي – أدّاد الخامس الذي حكم مدينة "كلحو" بين عامي ٨٢٣ و٨١١ ق.م. حكي أن سمير أميس تزوجت من عومنيس، حاكم نينوى، ثم تزوجت مرة ثانية من الملك نينوس. ثم إنها– بعد أن غدت أرملة كرة أُخرى– قامت بغزوات، وقادت حملات عسكرية وصلت إلى الهند، وأسست بابل، وأوجدت حدائقها الغنّاء.

ولأنه لم يكن من الممكن أن تموت، فقد خلدت نفسها في حمامة بيضاء بوصفها الطائر الذي يشبه الآلهة. حفظت سمير أميس ذكرى بلادها، وبلغت أبعاد الأسطورة. والهبت خيال اليونانيين مثل هيرودوت و ستيتياس وديودور الصقلي، وخيال الرومانيين والأرمن والأوروبيين أيضاً. وقد جعل منها كل من كريبيون وفولتير وفاليري وغلوك وروسيني بطلة اعمال أدبية وأوبرات. وكرس لها ديغا لوحة أكاديمية.

وانا بدوري سحرتّني الملكة. إذ عادت إليّ كأحلام الليل. ولم يتوان خيالى قط عن ابتداعها وتجميلها. كنت ابحث عنها فأجدها، وافقدها. ثم اركز على صورتها حتى اعثر عليها مكن جديد...

غَنّي يا سمير أميس، وهزّي أوتار كنّارتك! مجدّي عظمة بلاد آشور التي انحنت أمامها الأوطان قاطبة. يا ذات الشعر المشكول بالقرنفل، حدثيني عن النصر، حدثيني عن الحب...

انبهر علماء الآثار، على مرّ السنين بالوجوه الفتانة لآخر ملوك بلاد آشور المحفورة على المسلات والتماثيل التي انتشلوها من التراب. ألايجسدون بلاد آشور أيضاً؟

أما الأمراء الذين يضعون على رؤوسهم قبعات متنوعة، فيبدون مطمئنين بلحيتهم المجعدة، وعيونهم الواسعة المقمشة، في ذلك الزمن، بالمخمل الغامق، تحدق بثبات أمامهم، باتجاه الماضي، كما لو أن في وسع التاريخ أن يعيد نفسه ....

لم يكن هؤلاء الملوك مفرطين في لهوهم، ولا ذوي كروش رخوة، ولا ضعفاء شهوانيين أو طغاة دمويين كما تم تصويرهم أحياناً اجل لقد كانوا يتزيّنون ويتعطّرون ويغطون أجسامهم بالجواهر، لكنهم كانوا رجالاً حيويين دائمي الحركة والنشاط.

كانوا هائمين بالحصول على السلام، شعروا بأن الشعوب المجاورة التي كانت تعصر حدود الإمبراطورية، كأنها حبال من أسل، وتهددها بأستمرار، تدفعهم دفعاً الى الغزوات الأكثر تألقاً، والباعثة على الانتشاء بالقوة والنصر، وبحكم أنهم محاربون أشدّاء، وأكثر عناداً من موج البحر، فقد أنهكوا أعداءهم،وسحقوا تروسهم، ونصبوا انتصارهم على أراضيهم، وما كان لأحد أن ينافسهم أبداً. كانوا يجدون في الحرب التي تضمن لهم أرباحاً اقتصادية عديدة، كفاحاً ضد الشر. وأرادوا– وهم مقتنعون برسوخ الحضارة الآشورية وتفوقها الحقيقي– أن تعترف البلدان المجاورة بحضارتهم، وأن تتبناها كذلك، فهذه البلاد كانت تدفع الأتاوة لبلاد آشور، ومقابل ذلك كانت تكسب كثيراً من استقرارها الاقتصادي، وتنعم بالمزايا الأخلاقية، والمادية للحماية الملكية.

داخل الامبراطورية الواسعة التي كانت تمتد –في القرن السابع– من قبرص إلى إيران، كانت الدولة تؤمّن ترابط الشعوب، واللغات، والثقافات

لم يكن الملوك يمارسون سلطة مطلقة على طريقة لويس الرابع عشر في فرنسا. وماكان كلامهم سيفاً قاطعاً. إذ كان عليهم أن يعتمدوا على مجلس الشيوخ، وعلى الطبقة النبيلة، والطبقة العسكرية.

ترتبت على هؤلاء الحكام الرائعين، بجاذبيتهم، والفنانين بإنسانيتهم، واجبات إزاء بلادهم. وجب ان يطوروا الزراعة، و يصونوا المعابد، و قنوات الري، ويبنوا السدود، و يفرضوا احترام القانون، و بفضل سياسةالأُبهة، والإدارة المركزية، حاولوا ان يضمنوا لجميع رعاياهم الكرامة، و السعادة، والرفاه. فأشركوهم بفخر، في انتصاراتهم و افراحهم. كان الملوك يدشنون قصورهم البهية يدعون أحياناً سكان المدينة إلى ولائم دسمة، يشبعونهم خلال عدة أيام بالوجبات الشهية والخمرة اللذيذة، والغناء والطرب. كان الآشوريون حقاً ورثة السومريين والآكاديين. وقوام حكمتهم- مثل حكمة جلجامش- هو أن ينتفعوا بذكاء من وجود تحكم الموسيقى إيقاعه. أولم تقدم عشتار آلهة مدينة أربيل نصيحتها لآشور بانيبال بأن "يأكل، يشرب، ويكون سعيداً، ويحقق سعادة شعبه، لأن الكلام الجيد يخرج من بين شفتيه، فيشبع شعبه طعاماً وأذنيه كلاماً جميلاً؟".

لم يكن الملوك خالدين، بل كانوا مجرد ممثلين، وخدم للآلهة في هذا العالم، وخصوصاً لآلهة بلاد آشور. إذ كانوا- بعد موتهم- يذهبون إلى"البلاد التي لا رجعة منها"، مثلهم كمثل أي من رعاياهم. لذا لم يبنوا أهرامات على طريقة فراعنة مصر، بل اكتفوا بأضرحة بسيطة، وما أرادوا أن يحملوا ثرواتهم إلى قبورهم.ومرد عظمة هؤلاء الملوك ليس شجاعتهم ورفاههم الوافر فقط، بل سعيهم لجعل اسم بلاد آشور الذي كانوا يمجدونه، براقاً في أركان الأرض الأربعة وكان نصرهم الحقيقي السلام، والجمال، والحياة.



مؤسس كالح نمرود آشور ناصر بال - الثاني ملك آشور

١٢

نظرات إلى بابل الجديدة

كنت دائماً أفكر بـ(سمير أميس) التي تقول إحدى الأساطير إنها بادرت ببناء بابل.

والحق أن بابلاً ثانية –هي بابل نبوخذنصّر الثاني– شُيّدت، في القرن السادس قبل الميلاد، على أنقاض عاصمة حمورابي.

قررت ان ازورها في بداية الخريف، لأنها ليست بعيدة عن بغداد أكثر من ٩٠ كيلوميتراً إلى الجنوب . لكن للأسف لم يتم ذلك إذ إندلعت الحرب بين العراق وإيران في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٩٨٠. وحلقت الطائرات الإيرانية خلال أربعين يوماً فوق العاصمة وقصفتها، وراح كثير من الضحايا المدنيين. واخيراً تعودت مع أبناء حارتنا على قصفهم المستمر، واستأنفنا حياتنا العادية.

قادني الشتاء إلى الدراسة، فشرعت في بحوث جادّة حول ماضي بابل العريق. لقد أدركته كما ينبغي، حيث غدت بابل مدينة أسطورية تنعكس صورتها على مياه الفرات، أيضاً في المصادر اليهودية، واليونانية، والغربية القديمة أيضاً. وكان القدماء قد نظروا إليها نظرات مختلفة، بل متناقضة.

كان البابليون يرون فيها "المدينة الخيّرة" ومركز العالم. وكانوا يسمونها بـ –باب– إيلي، أي "باب الإله"، لأنها كانت مفتوحة على الدعوة الروحية للإنسان و تقوده إلى أعتاب إله القدر مردوخ، سيّد الآلهة الذي كان يرتفع معبده وسط الحارة . وفي زوايا الشوارع تنتصب مئات المعابد، والقبات المنذورة لآلهة مختلفة.

إن مدينة بابل هي ثمرة الروح؛ فهي تغمر النفس وتستهويها. فعند العبرانيين الذين كانت علاقتهم سيئة بجارتهم الغنية الخصبة، كانت تدعى بـ–باب– إيل المتكبرة، والفاتنة العضيمة. كانت تغري الحواس بهوائها العذب، وبعطورها الزاهرة الرقيقة، وطقوسها، وأسرارها. ها هي جاثمة ملكة على ضفة النهر، تأتزر بالكتان الناعم، وبالأرجوان، واللون القرمزي الموشّى بالذهب، والمرصع بالحجارة الثمينة – تعكف على الترف واللعب والطرب واللهو، وتسكر بخمرة التمر في عذوبة المساء.

في القرن الخامس قبل الميلاد أبدت بابل للرحالة الإغريق، كالمؤرخ هيرودوت أو الطبيب تيتيسياس، مظهراً أدهشهما إلى حد أنهما فقدا فيها شيئاًمن حس القياس. فأضافا إلى مساحة أسوارها عدة كيلومترات؛ وشعرا بالوجد وتعجباً من عظمة معابدها وقصورها، ومن جمال حدائقها الجليل. كتب هيرودوت معجباً:

" هذه المدينة زاهية إلى درجة لا يمكن أن توجد في العالم مدينة تقارن بها"

(هيرودوت، تأريخ،
الكتاب الاول، ص ١٧٨).

بعد أن خضعت للفرس واليونان، فإن " الجميلة" فقدت بعضهاً من ألقها. ومع أنها غدت شاحبة، وسحرية، ظلّت تتفحص قبة السماء بعينيها الثاقبتين......

في القرن الأول عرف مؤرخ يوناني آخر هو ديودور الصقلي، و الجغرافي سترابون مواهبها التنجيمية و الفلكية، و تنشّقا عبير ماضيها السطع. فيما بعد، أطبقت على بابل سماء من النسيان. حتى إن الغربيين النادرين الذين زاروا بلاد الرافدين، من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر، مروا

بجانبها من دون أن يلفت نظرهم أي شيء. وبعض الرحالة شبهوها ببنت ملك مخلوع، مطوحة في الغبار، تحرسها البوم والأفعى، وكانت بابل تبدو لعبة أحد الأقدار المشؤومة.

في منتصف القرن الماضي، كشف علماء الآثار من جديد جبين بابل المخبوء تحت الأنقاض. ومنذ عام ١٨٩٩، جعلت أعمال المنقب الألماني روبير كولدواي من الممكن إعادة تشكيل ملامح وجهها التي احتفظت بكامل سموها. وبحث العراقيون بدورهم، على مستوى الحكومة والشعب، بحثاً مواظباً يملؤه الحنين، عما بقيّ من المدينة، لأنها رمز عظمتهم. وشيَّدوا على الأساسات القديمة أسواراً متينة، ورَمَّموا بعض الأبواب والمعابد. و هكذا استعادت بابل، في نهاية القرن العشرين، زينتها البارقة، وتاريخها و قوتها الناضبة. كما لو أنها تستأنف دورها، دور العاصمة الثقافية. عاد الربيع، و كنت أنتظر بفارغ الصبر تحقيق حلمي بالسعي لإدراك جمال المدينة الحديث الذي كان على الدوام مرتسماً على أفق أفكاري.

في مدخل الموقع، انتصب أمامي أسد هائل من البازلت، ثقيل، غيرمصقول جيداً بهيئة تشبه اللغز. رأيته كأنهُ يعصر بين قدميه رجلاً مذهولاًو خلف الأسد يمتد ممر طويل مرصوف ببلاط ناعم من الكلس و الرخام كشف عنه كولدواي.

بمناسبة الإحتفال بعيد آكيتو، أي بالسنة البابلية الجديدة، كانت تماثيل مردوخ والآلهة الآخرين بملابسهم الفتانة تطوف في هذا الممر. كان الموكب الفخم يمر بين الجدران السميكة المحيطة به، تزينها أطناف قرميدية منقوشة عليها وسلسلة من ستين أسداً بغفراتها المتموجة كألسنة اللهب. هذه المخلوقات الجليلة، بذيولها النازلة إلى الأسفل، وأشداقها المفتوحة، التي هي رمز لعشتار إلهة الحرب والحب، تبدو وكأنها ترافق

موكب التطوف. وعلى خلفية القرميد اللازوردية، تعلو، وسط سيمفونية من الألوان، أنغامهم الذهبية الصهباء المدوية بالحمرة الوقورة، والبياض الناصع.

تخيّلت متأثراً أن هذا الممر شَهد مرور ملوك بابل المشهورين، كما شهد ملوكاً غرباء كالملك الفارسي كورش وابنه كسرى. شهدهم جميعاً يستحمون في العالم السحري الأمغر المشوب بالزرّقة. في زمن لاحق كان الإسكندر المقدوني واقفاً على عربته، بشعره الشبيه بعفرة الأسد وقد لوّحته الشمس، ودخل المدينة ظافراً، فهرع سكانها المظلومون، وقد أفقرهم الفرس الأخميديين الذين حكموهم منذ سنة ٥٣٩، لإستقبال محررهم بالهتافات والأزهار والتيجان.

تركت الممر المقدس، واقتربت من باب عشتار المقوس الذي يرتفع فوق هذا الممر. الباب بارق بالزرقة والخضرة، وعلى جانبه يخفق علم عراقي وبعض اشجار النخيل. إنه باب ثاني، راسخ في الأرض، وباسق نحو الأقمار. أما جزؤهُ العالي، بألواحه الثقيلة من القرميد المرصع، فقد اقتلعه أعضاء البعثة الألمانية، قبل الحرب العالمية الأولى، ونقلوه إلى متحف الآثارالشرقية القديمة في برلين. فما بقي سوى القسم الأسفل وحده الذي أعيد بناؤه كنسخة مصغرة، وجهّز بفتحة على شكل قوس له أربعة أبراج تتخللها متاريس. وهو مزخرف بالسعيفات البيضاء، والتنينات الصهباء المزرقة، بأرجل النسور والحيوانات المتوحشة رموز مردوخ. تتناوب هذه الزخارف مع زخارف الثيران الوحشية لإله العاصفة آدّاد. هذه الثيران بجلودها الزرقاء، زُرقة السماء، وعيونها الواسعة الشاردة، أثارت دهشتي وإعجابي.

كانت هذه الحيوانات كلها تخرج متلألئة من الخلفية الزرقاء المخضرّة للباب. فهل ينبغي أن نرى فيها روح المدينة وذاكرتها؟

بينما كنت أنظر إليها مندهشاً، بدا لي أنها تنتعش، خفيفة وشبه واقعية، تمشي ليس على جدار، بل على مرآة من ماء، آخذة هيئة خيالية. مما حملني مُنتعشاً على الغوص في ماضي بابل.

كان نبوخذنصّر الثاني المشهور الذي هيّأ ممرّ التطواف وباب عشتار. وقد ترك اسمه مطبوعاً على البلاطات الكبيرة التي تغطي الأرضية. ولما كان نبوخذنصّر يُقارن بالتنين في العهد القديم (إرمْيا، ٥١، ٣٤)، فإننا عرفناه أيضاً من خلال النصوص الاقتصادية، والتدوينات الملكية، والمؤلفين القدماء. وفي عام ١٨٤٢ أطلق الموسيقار الإيطالي فيردي اسم نبوخذ نصر على مقطوعة أوبرا دعاها "نابوكو" توشّحها روح وطنية حارة.

ويظل نبوخذ نصر شخصية نشطة ومعقدة.

إنه ابن بو لاصر الذي أسس، حوالي عام ٦٢٥ قبل الميلاد، إمبراطورية بابل الجديدة، وأسهم في إنهيار دولة آشور سنة ٦١٢. واحتفظ بطابع أصله الكلدان! إنه من قبيلة آرامية تدعى كلدو تم ذكرها، منذ القرن التاسع، في الوثائق الآشورية، حيث حلت في بلاد الرافدين السفلى.

في عام ٦٠٥ أفلح نبوخذنصّر في إنزال الهزيمة بالمصريين في معركة كركميش، على الضفة اليمنى للفرات. وطرق باب سورية وفلسطين داخلاً المنطقة.

بعد حين رفضت مملكة يهوذا العنيدة، أن تدفع الأتاوة، وأعلنت عصيانها. فاحتل ملك بابل أورشليم في ١٦ آذار ٥٩٧ وسبى ثلاثة آلاف من سكانها، وعلى الرغم من نصائح النبي إرميا لليهود بأن يرضخوا، لم تضعف مقاوتهم حيث ثار الملك صدقيا في بداية عام ٥٨٨ فعاد نبوخذنصّر وحاصر أورشليم وأغار عليها في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ٥٨٧

وأحرق المعبد والمنازل. فوضع الصناع والنبلاء وبضعة من الأفراد، نطاق الأسر حول خصورهم، ومضوا مشياً على الأقدام باتجاه بابل.

هذا التهجير حسب وجهة نظر بلاد الرافدين، لم يكن إلا حدثاً بسيطاً من حياة الإمبراطورية. ولا يحمل أي طابع عنصري. ذلك أن صفوة الشعب اليهودي نقلت الى أرض غريبة بعد صراع بين الأوطان، وعوملت، في الواقع، معاملة حسنة.

قبل نبوخذ نصر في لاطه الشباب الأكثر جمالاً، وذكاءً. فثقفهم بلغته، وغذاهم بأطعمة مائدته، على حد ما يروي النبي دانيال في العهد القديم.

ولقد شكا بعض المنفيين من الإقامة بعيداً عن مملكة يهوذا:

على نهري بابل
هناك جلسنا.
بكينا أيضا
عندما تذكرنا صهيون.
على الصفصاف في وسطها
علقنا كناراتنا.

(المزمور ١٣٧)

أما الآخرون، وهم الأكثر عدداً، فتلاءموا مع طريقتهم الجديدة في العيش، ونعموا وسط البابليين.

في عام ٥٣٨، سمح مرسوم أصدره الملك كورش الثاني، كبير ملوك الفرس الذي صار سيد بلاد سومر وآكاد، للمنفيين بالعودة إلى فلسطين. فما سلكت سبيل العودة الى الوطن غير قلة سعت لإستنشاق عطرها، وكانت متأثرة بالحكمة الكلدانية. غير أن اليهود الآخرين الذين أغراهم سحر بابل، العاصمة والمركز، ظلوا في بلاد الرافدين لأن:

"بابلُ كأسُ ذهبٍ
بيد الربّ
تُسْكِرُ كلَّ الأرض"

(إرميا، ١٥، ٧).

ظل نبوخذنصّر يحاصر مدينة صوّر طيلة ثلاثة عشر عاماً إلى أن استسلمت له. وفيما لو اكتفينا بالتدوينات التي تحيي ذكرى أعماله، لرأينا أنه لم يُرسِ دعائم إمبراطوريته على الحرب، بل اعتمد على بسالته وحكمته، وحماسته لتقويتها.

داخل الحدود، أظهر جلالة الملك مقدرة إدارية ملحوظة. فرعى الزراعة، وطوّر التجارة مع الشرق الهندي ـ الإيراني والبحر المتوسط، وشجّع الفنون والعلوم كالرياضيات، وعلن الفلك، وهي أساس معاريفنا الحالية. وكان يولي أيضاً اهتماما بالغاً بالماضي.

إذاً، من يستطيع أن يسمو سُموَّه مع هذه الشمائل الرفيعة كلَها؟ هذا ما كان يتساءَل به النبي دانيال مع نفسه:

"أنت أيها الملكُ ملكُ ملوك، لأن اله السموات أعطاك مملكةً واقتداراً وسلطاناً وفخراً، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء، دفعها ليدك وسلطك عليها جميعا. فأنت هذا الرأس من ذهب"

(سفر دانيال٢، ٣٧ – ٣٩)

الرأس الذهبي يعني الأكثر كمالاً، وتماما بين كائنات الخلق. ففي عهد نبوخذنصّر، غمرت الإمبراطورية نفسها في السلام.

هكذا استطاع الملك أن يسخّر وقته لأعمال التعمير. إذ قطع عهدا على

نفسه بأن يرمم، ويجمل عاصمته المحبوبة التي كانت مساحتها حينئذٍ تسعمائة هكتار داخل الأسوار، وكان يقطنها مائة ألف نفْس حتى لقد ورد في إحدى التدوينات: "لم أجد بين الأماكن المأهولة كلها أية مدينة أكثر شهرة منكِ يا بابل!".

وفعلا وسع قنوات الري، ونطاق المدينة المتكون من سورين تفصلها مسافة عريضة. وبنى صرحاً تذكارياً على هيئة معبد باهر منذور للإله مردوخ، وقصر رحب لإقامة جلالته.

كنت ـ وأنا أقف أمام باب عشتار ـ اخرج بطيئاً من الليل الأزرق الوضاء لماضي بابل... انسللت تحت القنطرة، وولجت في القلعة. إني الآن احترق شوقا لزيارة مسكن نبوخذنصّر البارق. كان قصره باسقا على يميني، من جهة الفرات. ومع ان اعمال الترميم كانت قائمة فيه، ظل مفتوحا للناس، دخلت واحدة من الساحات الكبيرة، واجتزت عتبة باب مقبب، ووقفت جامدا امام قائمة العرش الفسيحة، المزينة قديما برسوم النخيل والأزهار، وبالأسود الماشية وسط غابة من الزخرف الحلزوني، تخيّلت شبح الملك، بقشيب لباسه، يجلس في حجرة مقابل الباب المركزي، قريب الشبه بإله... واستدعيت بعد قليل شبحا آخر، هو شبح الامير بل شارا أوزور، الذي يسميه كتاب العهد القديم. بيلشتصر انه ابن نابونيد آخر ملوك بابل، أليس هو من قدم في هذه القاعة مأدبة اسطورية خلدها الفنان رامبرانتْ لاحقا في لوحة مشهور مستوحاة من الكتاب المقدس؟

يذكر النبي دانيال ان بل ـ شارا ـ أوزور انذهل، خلال احدى المآدب، حين رأى ظهور يد إنسان راحت تخط على أحد الجدران كلمات غريبة بالخط الآرامي. كانت الرسالة إعلاناً عن احتلال الفرس القريب لبابل. (سفر دانيال، ٥، ٢٦).

بارحت القصر حالماً. وقبل أن أبتعد، التفت محاولاً أن ألمح، على زاوية

القلعة، الحدائق المعلقة الفتانة التي وصفت بأنها كانت تعد سابع أعجوبة في العالم، حيث كان النسيم يَهزُّ - فوق الجدران العالية - قمم الأشجار المتألقة المتراصة الباسقة نحو السماء.

ها هي حدائق الطراوة والشهوة، حدائق الفردوس التي أبدعها حنين ملكة متحسرة، ذات عينين سوداوين لطيفتين تتحسران على جبال مسقط رأسها ميديا و على غاباتها: إنها آميثيس، حفيدة الملك آستارياج، وزوج نبوخذنصر.

هذه هي الدرجات، تمتد نحو السقوف المقوسة تسندها الأعمدة، وتحف بها الأشجار الراسخة من كل صنف، مشبعة الارتواء نتيجة نظام هندسي بارع: أشجار السرو، والدّراق، والمشمش، والتين، والرمان، الجنبد الفارسية، والبختياري.

عند المساء، حينما تتراقص الظلال البنفسجية على السهل المحيط، تصعد آميثيس إلى الشرفات، فتوسوس أساورها الذهبية الثقيلة في معصميها، وتنساب تحت أغصان الشجر المورق حديثا، وتبحث عن الامتلاء اللطيف وتستريح إلى ذكريات طفولتها.

تمر السنين، عبر الحدائق المعلقة، على نَسق الاسطورة، بينما تعود ملكة بابل إليها لتنهل منها.

غالباً ما أسرح في حلمي في هذه الحدائق الشاعرية حيث لا يبذل العشب أبداً، وحيث تحتفظ النباتات بخضرة الزمرّد، وتعطر شجيرات الياسمين الهواء على الدوام. فيتملكني شعور بأنني عشت فيها قبلاً، كما يعيش المرء في جزيرة سعيدة... إن الحياة تفوح بعبير الشباب. وأنا في هذه الحدائق أطوف حول كياني كله... قرب هذه الحدائق، في احدى قاعات القصر، أقام الإسكندر سنة ٣٢٣ آخر مأدبة. وشرب فيها نبيذاً معتقاً أكثر من ألف عام.

وبعد عدة أيام – وهو يهذي من الحمى، عاجزاً عن الكلام – راح يُحيِّي، بطَرفَة من أجفانه، المحاربين المقدونيين الذين كانوا يمرون صامتين أمام سرير أبّهته.

كانت الشمس تغرب وراء أبراج المدينة، وتصبغها بلون الأرجوان، حينما لفظ الملك آخر أنفاسه.

وكان البابليون يتفحّصون حين ذاك السماء بومضاتها الغارية، فاكتشفوا مشروعا عظيما مغرياً لمدينتهم. إذ كانت غاية الإسكندر أن يجعل من مدينتهم عاصمة إمبراطورية كونية. لقد خسروا الإسكندر على نحوٍ ما.



آشور بانيبال ملك آشور ٦٦٨ - ٦٣٠ ق.م يؤدي شعائر إعادة
بناء معبد الإله

١٣

قصّة برج بابل الحقيقيّة

كانت بابل "مدينة – برجاً"، مليئة بعلماء الفلك المشهورين، أصدقاء القبّة الزرقاء حيث تتلألأ النجوم.

سلكتُ طريق مواكب التطواف المنحدرة من باب عشتار باتجاه الحيّ الجنوبي. وصلت إلى مكان الزقورة القديمة التي ولّدت أسطورة برج بابل. وكان البابليون القدماء يدعونها بـ "إيتيمينانكي" أي "بيت أساس السموات والأرض". لم أجد سوى خندق مليء بالماء، يحوطه القصب، ويعلو فيه نقيق الضفادع. كان الخندق يحتفظ بشكل قاعدة البرج، وهي عبارة عن عدة أنساق من القرميد المشوي، مبنيّة بناءً مربّعا طول ضلعه من كل جانب ٩٠ متّراً تقريباً.

هبت نسمة طويلة... فجلستُ أمام البقايا الفقيرة لهذا الأثر الهائل، وقد عَزَمْتُ على أن أتدخّل لأحوّل الخيال إلى واقع. ومثلما يفعل الساحر القديم، أخرجت من الأرض زقورة بثمانية طوابق، ألِقة الألوان. وفي قمتها يسطع – كعين زرقاء لاهبة نوراً وحياةً – معبد صغير ملبّس بالقرميد المرصّع، يُلقي نظره على السبخة والسهل المخضوضر المحيط به؛ ويعلو ليُشعل السماوات...

تعرّض البرج لكوارث عديدة، كانت البداية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثمّ هدّم الملك الآشوري سنحاريب جزءاً منه سنة ٦٨٢. وقام بترميمه ابنُه أسرحدّون وحفيدهُ آشور بانيبال. وتابع الملوك البابليون

الثلاثة: نابو بو لاصّر و نبوخذ نصّر و نابونيد، أعمال إصلاحه وتجميله. واستخدموا لذلك عمّالاً من مختلف شعوب إمبراطوريتهم، من الشمال إلى الجنوب، و ممّن يتكلمون لغاتٍ مختلفة.

وَجدَ هيرودوت الذي زار بابل حوالي عام ٤٥٠ البرج متقوّضاً في أحد جوانبه إثر هجوم الملك الفارسي العاصف كسارس سنة ٤٧٩:

"وسط المعبد أُشيد برج، متين، وضخم يبلغ عرضه (٩٢م). وينتصب على هذا البرج برج آخر، وعلى هذا الأخير برج ثالث، حتى يصل عددها إلىثمانية... في البرج الأخير، يوجد معبد ضخم؛ وداخل هذا المعبد يوجد سرير كبير مُزيّن بأغطية جميلة، وإلى جانبه طاولة من الذهب. لم يوضع في هذا المكان أي تمثال للآلهة، ولا يحقّ لأيّ كائن بشري أن يقضي الليل فيه، ما عدا امرأة وحيدة من البلد، اختارها الله من بين النساء، على حدّ ما يقول الكلدانيون وهم كهنة هذا الإله".

(هيرودوت، تاريخ، الكتاب الأول،
١٨١٨ ترجمة فيليب.و. لوغراند).

عيشة وصول الإسكندر إلى بابل غازياً، أعاد ممارسة الطقوس والأعراف الأكثر قِدَماً. وأحاط نفسه بالكهنة الكلدانيين. و دفعه فضوله العقلي إلى استشارتهم في جملة الأمور المتعلقة بهذه الزقورات الضخمة، الملبّسة بالسيراميك الأبيض، والأسود ، والأحمر، والأزرق، والبرتقالي، والفضي، والذهبي، حيث رآه يلمع من بعيد كأنه سراب، وبينما كان يتقدّم مع كتائبه عبر وديان دجلة والفرات الخضراء الخصبة، سأل قائلاً: ألا تبدو هذه الزقورات وكأنها ترتقي قبّة السماء؟

فأجابه الكهنة: الحقّ أن الرافديين – منذ العصور الأولى – غطّوا بلدهم

السهلي بالأبراج، كأنها جبال تشبه سلالم مقدّسة، تشكّل الرابط بين السماء والأرض. ولما كانوا مُفعمين إيماناً وحماسة، فقد عبّروا عن حاجاتهم الدينية، و عن عبقريتهم الخاصة بتشييدها. هذه الأبراج كانت مهيمنة على المدن القديمة كلها: أور، وأوروك، ونيبور، وآشور، ونينوى، وبابل، كما كانت تحافظ على الوحدة الاجتماعية. ولم تكن على الإطلاق أضرحة كالأهرامات المصرية، بل ربما كانت ملاجئ للهروب من فيضانات الأنهار المدّمرة، ومراصد، ومساكن تنزل إليها الآله المشغولة بمساعدة البشر على مصاعب الحياة.

عندئذٍ أمر الإسكندر رؤساء العمّال أن يجدّدوا برج بابل المربعّ، وأن يزيّنوه بعد ذلك.

هبّت نسمة أخرى حاملة ذكريات هذه الأحداث الماضية. فذَبُل البرج في عينيّ، تاركاً المكان للخنادق، وللسهل تتخلّله الوهاد، وتقطعه السواقي الصغيرة...

هناك رواية: تقول أن هذا السهل استقبل، من أزمان بعيدة للغاية، أحفاد نوح. ففي نصّ مكتوب قبل عدة عصور من الميلاد، يروي العهد القديم أنهم انطلقوا من الشرق، إلى بلاد شنعار (بابل). وأرادوا أن يبنوا فيها مدينة وبرجاً عملاقاً يعانق السماء.

لكن الإله الخالد الذي أخذته الغيرة من سُمّو المشروع، أودى به إلى الإخفاق حين خلط لغات العمّال. فما عاد هؤلاء قادرين على التفاهم، لذا توقّفوا عن بناء البرج وتفرقّوا في الأصقاع:

"لذلك دُعِيَ اسمها بابل لأنّ الربّ هناك بلبل لسان كل الأرض..."
(سفر التكوين، ٩، ١١)

إن أصل لفظة بابل التوراتي والشعبي، المرادف لـ "الخلط"، خاطئ، لأن اسم بابل لا ينحدر من الكلمة العبرية بَلَبل التي تعني خلط أو مزج، بل جاء من باب – إيلي أي باب الإله في اللغة الأكّادية، وهو الاسم القديم لبابل.

فلماذا قلب الكتاب المقدّس معنى اسم البرج، وانعطف بالتقاليد في الاتجاه المعاكس؟

في نظر اليهود المنفيّين، هذه الزقورات متعدّدة الألوان مثل حزمة من النجوم المتلألئة، صوب سماء بلاد الرافيدين الصافية، كانت علامات على تعدُد الآلهة، إذاً فهم يُدينونها. وبرج بابل يظّل عندهم رمز عاصمة الأعداء، القوية والوثنية في آنٍ معاً.

على أن أسطورة برج بابل القديمة، المتولّدة من حُلُمٍ حنيني "حيث كانت الأرض كله لساناً واحداً، ولغة واحدة" (سفر التكوين ١١)، أغرتِ العقول، وألهبت الأخيلة، وألهمت فناني الزركشة في العصر الوسيط، والرسامين، مثل، بروغل، والنّقاشين، والكتّاب. ومضى رحالة غربيون للبحث عنها في " وادي ما بين النهرين".

وعلى مرّ العصور، مضى الناس في مشروعات عمرانية باتت، رويداً رويداً، أكثر هوْلاً. فأقواس النصر، وأبراج المراقبة، والأبراج العالية، وأبراج الحصون، والكاتدرائيات بمآبرها الحجرية المتعالية، والمنارات، تنتفش في المدن. وما عسى أن يقول مؤلّفوا سفر التكوين وهم يرون التجمّعات البشرية الحديثة، كحي مانهاتن وناطحات السحاب العديدة التي تملؤه؟ هل سيُلقون اللعنة من جديد على الحضارة المدنية؟

ويبقى سؤال آخر: لماذا أظهر الإله الخالد أنه غيور إلى هذا الحدّ؟ فالبشر وهم يرفعون أبنيتهم هذا الارتفاع، لا يبحثون عن مجاوزة وضعهم البشري.

لقد أرادوا أن يحققوا عملاً ثقافياً، وتقدماً ومن ثمّ، أن يُظهروا غاية ما عندهم من قدرات خلاّقة معطاءة. أما تعدُّد اللغات المحكية، فهو يكشف عن الغنى والخصوية. فهو يساعد على التعبير عن الأفكار، ويشير إلى الخصوصية الأدبية، ويسمح بازدهار الآداب والعلوم، و من دونه كان يمكن أن ينحسر الفكر.

•••

كتب الشاعر الفرنسي هنري ميشو: "لقد تحوّلت أبراج بابل إلى جُسور:! إنه لبرنامج كامل! لنا جميعاً.

فتعالوا اليوم نُكمِل البرج، ليس برج الخلط والبلبلة، بل برج العلم الإنساني. ومن أجل هذا، فلنتخلّص من عدم مقدرتنا على فهم الآخرين، ولنُصنّفْ خلافاتنا في الرأي، وفي المعتقدات، ولنتاقسم معارفنا وتقنياتنا التي تزيدنا قوةً، ولنتوحد في عمل مشترك يحوطه إيمان إيجابي. ولنُعمّر الأرض بسلام. فَيا أيها العمال أياً كان أصلكم وأياً كانت لغتكم تعاضدوا على هذا البناء، ولِنكن نحن أنفسنا جسوراً!

ذات يوم، ونحن نقف على واحدة من العبّارات الممدودة بين الشعوب، والبلدان، سنرى انبثاق فجرٍ جديدٍ، وحبّ جديد.

١٤

نساء...

كم مضى من أيام و أنا أسير تحت شمس بلاد الرافدين الباهرة؟ فعلى طول طريقي، كنت ألقتي محاربين، ورجال بلاط، وكتّاباً، وتجاراً، وصنّاعاً ورعاة...

ثمة صُوَرٌ أخرى من الماضي، صور نساء انبثقن من سحر المساء. تركنني أخمن تفاصيل قدودهن الغائمة قليلاً، لكن المتحدّدة في عيني عقلي المتيقظ. اكتشفت بعض الوجوه، وأعدت تركيبها على هواي. وكان صعباً عليّ أن أراها مختلفة عن ألوان الجمال المتناسقة.

سمت أناشيد راعشة، وموسيقى لا توصف، وفاحت روائح زكية، وعطور خفيفة، فألقت بي في ضرب من الافتتان. كان قلبي يخفق بسرعة، بسرعة فائقة...

أكملت رحلتي في حياة النساء المشهورة أو المتواضعة...

غالباً ما غُصت في النصوص القديمة لمعرفة ذلك في سومر، وبابل وبلاد آشور، فالإلهات العظيمات مثل نينيل، وإنانا وعشتار كنّ موضوعات طقوس حارة. إذ إن المجتمع البشري كان في البداية يقلّد كلياً مجتمع الآلهة.

ولسيدات بلاد الرافدين، من الملكة الراقية إلى الخادمة، ومن الكاهنة إلى المومس، تاريخهن أيضاً. فسواء أكنّ محبوبات أم مدّللات، أم كُنّ خائفات أم متروكات أم إماء، فإنهن يشهدن على عصرهنّ.

لكن من المؤسف ألاّ تتحدث هذه القصص القديمة إلا قليلاً عن النساء العاديات. ألم يعشن منزويات في منازلهن، راضخات لآبائهن، ولأزواجهن؟

غير أنهن كُنَّ يسيطرن عليهم بطراوتهن. كن ينشغلن بالأعمال المنزلية، والأطفال، جاعلات الجو أكثر إنسانية. وكن يعملن ليل نهار، ويشع منهن وميض نور على البيت. وهكذا كن يحققن حبهن الكامل للآخرين. ولقد وجدتُ معهن، وبواسطتهن الزوجات الرقيقات، والعاشقات العاطفيات، والأمهات الوقورات، أسرار الكون.

وثمة أيضاً العازبات؛ وهنَّ ربّات أعمال ثريات، بهيئآت متحررة باذخة. وهؤلاء الناديتو، المنذورات لأحد الآلهة، يعشن حياتهن بمجازفة. فيشترين بحرية تامة، الأراضي، والمنازل، والبضائع، والعبيد برقابهم المنحنية.

وكانت النديمات تنبثقن في المدينة كالورود. يتذوقن سحر الحب الحر، البعيد عن المحضور، دليل الصحة الجيدة والثقافة الرفيعة. وكن بروائحنّ الفواحة عطراً، وأسلوبهن الآسر كأنهن شِباك الصيد، يتمتعن مع عاشقيهن بأكثر الشهوات طراوة.

في هذا المجتمع ذي النمط الأبوي، كانت مكانة النساء المتدينة عن مكانة الرجال تختلف بحسب الولادة. حتى إن تدني مكانتهن كان يمكن أن يتحول إلى بهاء متعدد الفروع.

لقد نجحن تدرجياً في الحصول على بعض الحريات، والحقوق. وطوَّرنَ شخصية قانونية مستقلة. حيث تمتعن بملكيات خاصة، وتصرفْنَ فيها وفق مشيئتهن. وكانت شهادتهن متساوية أمام العدالة كشهادة الرجل متساوية.

ترى ما الأمنيات الخبيئة التي كانت لدى هؤلاء السيدات أو الآنسات؟ وما رغباتهن السرية، وكفاحهن، ومباهجهن، وبؤسهنَّ؟ وهل كن يبحثن عن الحب لأنه جنيّ يحميهن؟ الإجابة على هذه التساؤلات عسيرة إن نحن لم نسبر أغوار ذواتهن.

فبفضل الاكتشافات الأثرية، كالمسلاّت، والصفائح المعدنية، والمنحوتات الجدارية، والعاجيات، والجواهر، واللُقى الأخرى، عُرِفتُ بعض الوجوه التي ابتدعها القدر أو الفن مما سكب الضوء على هذا الموضوع، وألهب العالم.

لقد سحرني وجه سيدة أوروك المنحوت حوالي عام ٣٢٠٠ق.م، بابتسامته الغامضة، الساخرة قليلاً، أحمله في داخلي.

الملكة السومرية القديرة بو آبي، من سلالة أُور الأولى، في الألف الثالثة، قادتني بعيداً، بعيداً جداً إلى حيث لم أعد قادراً على متابعتها... كانت تنزل متألقة، ويداها مليئتان بعطايا رائعة، إلى مملكة الظلمات. كيما تعيش فيها مع خادماتها حياة تضارع في بهائها الحياة على الأرض. كانت ترافقها موسيقيات يحملن كنانيراً بأحد عشر وتراً، ملبّسة بمعدن ثمين. وكانت الملكة تضع على رأسها تاجاً ضخماً مزركشاً بأوراق الشجر، والأزهار، وحلقات الذهب، ويغطي جسدها دثار وثير، موشى بالتمائم والجواهر.

أما البنات اللواتي يجري في عروقهن الدم الملكي، ذوات الأجسام والوجوه الجميلة، فكن يثرثرن بين جدران الخدْر، مكان الأسرار والدسائس. كانت الأيام تمضي سريعة ليس فقط لإنشغالهن بزينتهن وجمالهن، وهو سبب أول لوجودهن، بل لانصرافهن إلى التنجيم، والتنبؤ، وتفسير الأحلام، وغير ذلك من ضروب النشاط. وكن يدعين أمناء سرّهن، وكاتبيهن، وخدمهن. و عند الحاجة كن يمارسن الطقوس الجنائزية بخشوع. لم يكن النظام المتدرج والهرمي، بقواعده الصارمة، مقفلاً شأن الحريم عند العثمانيين. إذ كان في وِسْع الأميرات اللطيفات - إذا سمح الملك - أن يغادرنه في بعض المناسبات، للقيام برحلات، أو للمشاركة في الاحتفالات الطقوسية. ومن جانب آخر، كنَّ يمتلكن مساكن باذخة.

ولئن كانت الملكات مبدئياً مجردات من مسؤوليات الدولة، فلم يغبن

كلّياً وراء أزواجهن وأولادهن. ففي النهار كن يقفن إلى جانبهم، ويؤثرون عليهم في اتخاذ القرارات السياسية والإدارية. وعند المساء يزرعن فيهم البهجة من خلال أقراطهن البنية اللامعة.

وكان يحصل أحياناً أن تتفوق سيدات القصر – بطريقتهن الخاصة – على الرجال. وإحداهن قدّمت لي اسمها المحفور للخلود على جبهة إحدى المسلات المنتصبة في آشور، وهو سامورامات. فمن كانت هذه السيدة؟ تقول المسلّة:

"كانت سيدة قصر شامسي – آدّاد، ملِك العالم، ملك بلاد آشور، وأمٌ آدّاد – نيراري، ملك العالم، ملك آشوري، وكنّة شالمانصر ملك أربعة أقطار الأرض".

عاشت هذه الملكة الجليلة في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. فهل تولّت الحكم مستخدمة ذكاءها، وجسارتها، حين كان ابنها آداد – نيراري ما يزال قاصراً؟ رأيتها جميلة، بل رائعة الجمال، بثوبها الطويل المزركش بالسِّجف، ووجهها الأصفر الذهبي، وأهدابها التي طولّها الكحل، وعينيها السوداوين المكحلتين. تزين عنقها وذراعيها بالجواهر الثقيلة من الذهب، والحجارة الكريمة وبلغت من قوة الشخصية ما جعلها توحي بأسطورة سمير أميس.

ثم ارتبطت بأسطورة سمير أميس بعد مائة عام ملكة من نينوى، هي الملكة زوكوتو ومعنى اسمها "الزكية" في الأكادية، وهي "سيدة قصر سنحاريب" (...)، كنَة سرجون (...) وأمّ أسرحدون.

ذكرتها الوثائق مراراً. ويُقال إن هذه الآرامية التي كانت دسّاسة، لعبت دوراً رئيساً على مسرح بلادها.

وكونها زوجاً ثانية للملك سنحاريب، قاسمته وجوده في الظل، طيلة نصف قرن. وهي التي دفعته إلى أن يختار أسرحدون ليكون الملك القادم، على الرغم من أنه لم يكن الابن البكر بين الأمراء. وبعد مقتل زوجها، هيمنت بنفوذها على ابنها الذي كان يكن لها احتراماً عظيماً، حتى لقد طبع صورته وصورتها على صُفيحة من البرونز، وهو النموذج الأوحد في بلاد الرافدين.

إثر موت إسرحدّون خلال حملة إلى مصر، قررت الزكيّة، من جديد، مصير دولة آشور. فأزاحت الوريث، وفرضت حفيدها آشور - بانيبال ملكاً شرعياً، وهو الشاب المُهيأ للكهنوت. وهكذا دعت الأمراء الملكيين، وكبار رجال الدولة، والحكام، والضباط، والمواطنين جميعاً، رجالاً ونساء، إلى أداء قسم الولاء:

"أيها القوم، سوف تحلفون الآن يميناً بأنكم من الآن فصاعداً، إذا سمعتم كلاماً ينطوي على سوء النية، والدعوة إلى التمرد والعصيان ضد آشور - بانيبال، ملك بلاد آشور، سيدكم، فستأتون لإعلام زاكوتو، جدته، أو لإخبار سيدكم آشور - بانيبال..."

خيالي يسرح في سيرة تلك النساء اللواتي تركن شيئاً آخر أكثر من الغبار كان يجري فكري بطيناً باتجاه حرّان، المدينة الدينية والتجارية المبنيّة جانب أحد روافد الفرات، في بلاد الرافدين العليا. كانت ترقد في غرائب معبد سين، إله القمر، مسلّتان تذكاريتان، تغطيهما النقوش الكتابية. كان صوت الملكة المدهشة العذب، ما يزال ينبعث مِنْ حجر المسلّتين:

"بفضل ما يكُنُهُ لي سين سيد الآهة كلها، من محبة لأنني أقمت له الشعائر، ولأنني لامست طرف ثوبه، حقق ما لم يحقّقه أبداً

إلى اليوم، ومَنَّ عليّ بما لم يهبه لإنسان، وهبني (أنا المرأة) مستوى رفيعاً، واسماً عظيماً في البلاد".

إنها ملكة آداد – غوبي ذات الأصل الآرامي هي التي قالت هذا الكلام. ولدت سنة ٦٥١، وترعرعت في حرّان. وتزوجت من الحاكم، وهو نبيل بابلي. وأقامت شعائر عارمة للإله سين الذي كان له في هذه المدينة مزاراً مشهوراً. عام ٦١٠، بعد سقوط نينوى، سقطت حرّان، الحصن الأخير الذي احتمى فيه الملك الآشوري الجديد في أيدي الميديين:

نزلت آداد غوبي التي قد فقدت زوجها، مع ابنها نابونيد في بلاط بابل حيث كان نبوخذنصّر حاكماً. فاحتلت فيه مكانة عالية.

وحينما ارتقى نابونيد العرش سنة ٥٥٦، حيث أوصلته إلى السلطة ثورة القصر، أو حزب الكهنة، ساعدته أمهُ بنصائحها. فسعى الملك لإجراء إصلاحات متنوعة، وإقامة العدالة، وإعادة بناء الآثار القديمة لأنه كان يحترم الماضي. وكان أيضاً، وهو الوديع، الحالم، يعبد الإله سين. وشعر أنّ الإله مردوخ قد ظهر له في الحلم، مثلما ظهر إله القمر لـ آداد – غوبي، وطلبت منه أن يعيد تشييد معبد حرّان.

ذهب نابونيد للإقامة في واحة التيماء شمال الجزيرة العربية، تاركاً لولي العهد أمر الحكم في بابل. لذا لم يستطع أن يشارك في جنازة أمهُ التي توفيت سنة ٥٤٧، وكان عمرها مائة وأربع سنوات.

تروي حوليّة نابونيد أن قراراً برثائها صدر فوراً في البلاد:

" في شهر نيسان، في اليوم الخامس توفيَت أمُ الملك في دور – كارازو، على ضفّة الفرات، في أعلى سيبار. بكاها الأمير وجيوشه ثلاثة أيام، وتمّ رثاءها. وفي شهر سيوان (أيار –

حـزيران)، أُقـيم رثـاء لأمّ الملك في آكاد".

(تواريخ رافدية، منشورات الآداب الجميلة ١٩٩٣ص ٢٠٣،

ترجمة ج.ج. غلاثير Glassner).

أدّى حبّ نـابونيد لوالدته آداد – غوبي إلى نصْب مسَلّة لَها، ثم إلى نصب مسّلة ثـانية حيث نُقشَ عليهما قصة حيـاتهـا، وأفعـالهـا السـامية.

هبط أللیل على السهل الرافدي الفسيح. كنت أشـاهد القمر المدّور كقرصٍ من نـارٍ بيضـاء، مطليّ بـالفضّة. فـأرتسمت في ذهـني صـور نسـاء أُخريـات، كـانت في البداية غـائمة، غريبة، ثم أضحت أكثر نقـاوة، إنـهـا صـور كـاهنـات الإله سين في مدينة أُور.

هـا هـي إنـهدوانـا، سرجون الأول، ترتدي ثوبـاً مغصنـاً وتقدّم قرابين أمـام المذبـح. ومـن حـيث إنـهـا مـؤلـفـة مـعـروفـة، وواحـدة من أقـدم الـكـاتـبـات الرافديـات وسخّرت نفسها طواعية لتـأليف عدد من الأنـاشيد والقصـائد إكرامـاً للإلـهة إنـانـا.

وهـا هـي كـاهنـة ثـانية تنحني على لويحـاتهـا الصلصـالية، وفي يدهـا قلم. تبتدع الألفـاظ الأكثر طراوة، والأكثر حرارة، حتى تمجّد في قصيدة غنـائية، جمـال محبوبـهـا شون – سين، ابن شولجي العظيم ملك أُور، الذي اتحدت وإياه في "زواجٍ مُقدّس".

" زوجي الغـالي على قلبي
عظيم هو جَمـالك، ولذيذ كمـا العسل
أيهـا الأسد الغـالي على قلبي
عظيم هو جمـالُك، ولذيذ كمـا العسل."
(...) أيّ زوجي، دعْني أُداعِبك:
لأن مداعبتي العـاشقة أشهى من العسل

دعْنا نتمّتع – في الغرفة المليئة بالعسل
بجمالك المتألّق
أيها الأسد، دعْني أُداعِبْك:
لأن مداعبتي العاشقة أشهى من العسل."

(س.ن. كريمر، يبدأ التاريخ من سومر،
منشورات آرتو،١٩٥٧ ص ١٨٧).

ألا تعلن نغمات هذه القصيدة المفعمة بالحبّ، والمكتوبة في نهاية الألف الثالثة، عن نغمات "نشيد الإنشاد" في العهد القديم؟

إلا ان العالم يستعيد وحدته المفقودة، وخصوبته، بفضل نظرات السيدات وابتسماتهن ومداعباتهن، وروعتهنّ وشهوتهنّ...

وحيث إنّ – نيفالدي – نانا بنت نابونيد، عُيُنت، هي الأخرى، كاهنةً عُظمى للإله سين، فقد برهنت على أصالة شخصيتها مؤسّسةً في أور متحفاً خاصّاً، حفظت فيه آثاراً من عصور مختلفة انتقتها بعناية.

في كل معبد من البلاد كلّها كانت تعيش عدّة كاهنات، وكن يصلّين، ويحتفلن بالمراسيم الدينية مما يجعلني أسائل نفسي: لماذا لا تملك المرأة في المسيحية والإسلام حَقٌّ أن تقوم بهذا الدور؟

كنت ما أزال أتأمل القمر الأبيض المُسْكِر. كان يبعث إشعاعه قوياً على الوادي الواسع الهاجع بين النهرين النائمَين. لم أعد وحيداً كي أُكمل رحلتي، بل كُنتُ محوطاً بِقَدْرٍ أكبر من حضور تلك النسوة حضوراً كان ينسج لحمة العالم القديم والحديث. ففي جوار هؤلاء النسوة، أخواتي في الحلم، كنت أشعر بالهدوء والاعتزاز كأنني ملك من بلاد الرافدين.



قناع امرأة أور

١٥

الإغريق في بلاد الرافدين

ما عدا الأميرات الآشوريات والكلدانيات، يمكن القول إن هذا هو عصر الأميرات الآسيويات اللواتي وَطِئْنَ مع الإغريق تراب بلاد ما بين النهرين. عند ذهابي إلى سلوقيا الواقعة على مسافة ثلاثين كيلوميراً جنوب بغداد، على الضفة اليمنى لنهر دجلة، فكّرت بقصة أفاميا بنت الملك بختيريا، التي تزوّجت في مدينة سوس، وسط احتفالات جماعية مهيبة، من سلوقس، مرافق الإسكندر الأكبر، ولم يطّلقها زوجها أبداً!

فـي قلب بلدٍ مُنبسط كاللوحة، تحت شمسٍ قاسية، تتكوّر عدّةُ تلالٍ اصطناعية رمادية اللون. إنها الخرائب المتواضعة للمدينة القديمة. كان صمت خفيف يخيّم فوق هذه العُزلة الرمادية، حيث ما يزال يجول شبح قائد الخيّالة الذي ربط بلاد الرافدين مع قوىً جديدة. إن وجهه ذا الملامح الإغريقية، بذقنه البارزة، وبِشَعْره الذي يبدو تحت خوذته مجدّلاً أسود، كان يصعد في الأنوار...

كان سلوقس المقدوني قد تَبِعَ بإخلاص حملات الإسكندر الكبير. وبعد سنتين من موت سيّده، سنة ٣٢١ قبل الميلاد، صار حاكماً لـ سترابيا أو مقاطعة بابل.

وأسّس رابطة الدويادوغ، أي الضبّاط الذين كانوا ضد حليفه القديم آنتيفونوس. إذ قام هذا الأخير بإزاحته من مقاطعة بابل، لذا هرب سلوقس إلى مصر عند بطليموس، ثم عادة سنة ٣١٢ إلى مقاطعته وطرد جيوش آنتيفونوس منها، وبسط سلطته على الأراضي الشرقية، وهي بابلو وسورية الشمالية، وبلاد الفارس.

تخيّلت سلوقس يدخل منتصراً إلى بابل، ذات صباحٍ مُشرق. ذلك أن سكّانها المتراصّين على طول الشوارع رأوا في ذلك اليوم الأول من نيسان، سنة ٣١١ ق.م. علامة على بداية تاريخ جديد، هو التاريخ السلوقية السلوقي. هكذا قام المؤرخون في بلاد الرافدين وسوريا بكتابة وتوثيق الحوادث في التاريخ السلوقي (وعلى هذا المنوال استمرّ المؤرخّون المسيحيون السُريانيون – فيما بعد – أي بين القرنين ٢ و١٩ بعد الميلاد– في استخدام التأريخ السلوقي – الإغريقي).

تُوّج سلوقس ملكاً عام ٣٠٥ فشرع في فرض سياسته بإلحاق الشرع بالهيلينية القائمة على الحياة الحضرية. وتحت قدميه وُلِدَت عشرات المدن التي تتباهى ببوابتها الكبيرة، ونقوشها التمجيدية.

ما يزال تاريخ قصة سلوقيا المثبتة على دجلة يرنّ بأصوات المعاول، والمناشر، والمطارق، وصرخات العمّال.

بناها سلوقس الطموح بالقرب من بابل، ربما لرغبته في تخفيف تأثير بابل عاصمة الكلدانيين، وفي محو الذكريات البارقة لملوكها، وأعطاها اسمه.

فكيف نرسم الوجه العام للمدينة؟ وكيف نُمجد عينها الهيلينية، التي كانت تومض أضواءها بنُبل تفوقّها، وحيوية شخصيتها؟

كانت مدينة سلوقيا محاطة بالخنادق الدفاعية، وبسور بيضوي الشكل، مبني من القرميد. وكانت مبنيّة وفق نظام دقيق، على طراز الشبابيك التي تُعامد اتجاه البناء.

وكان محورانٍ للمرور يحدّدان مجموعة من البيوت المزيّنة بالأفارين. وفي الجنوب توجد درب ذات ركائز دائرية، تصعد إلى الساحة العامة المحوطة بالدكاكين، وورش العمل. وفي الشمال تجري قناة نبوخذنصّر

الثاني الملكية، تملؤها القوارب التي تقوم بنقل كثيف، إذ إن القناة كانت تربط دجلة بالفرات.

ولَما كانت سلوقيا مدينة تجارية، ازدهرت بسرعة، وغدت أكثر المستعمرات الهيلينية في الشرق أهميَّةً. ألا تقع على تقاطع الطرق القادمة من الهند، والخليج، وتلك التي تعبر شبه الجزيرة العربية؟ كان التجار يختارونها بإرادتهم محطةً للاستراحة بغية مبادلة منتوجات بلاد بابل كالشعير والقمح، والتمور، والصوف، والقار، والبخور، والعاج، والعطور.

كانت سياسة سلوقس قد جذبت إلى هذه المدينة فلولاً من المقدونيين والإغريق، والآرامين، والبابليين، راحت تسرع في شوارع المدينة العارمة بالمشروعات والأحلام...

حينما كنت أجول وسط خرائب المدينة هذا العصر، كان وجه سلوقس القاسي والرحيم، القادم من الماضي، يُلاحقني. حاولت أن أستذكر تواريخه وأعماله العظيمة ومصيره المأساوي انتصاره على آنطيوكس في إيبسوس، في آسيا الصغرى عام ٣٠١ ق.م ونقل عاصمته من سلوقيا إلى أنطاكية، الشاطئ المتوسطي، سنة ٣٠٠ ق.م وتربّعه على قمة إمبراطورية ممتدة من حدود الهند إلى الأناضول، وهجومه على بلاد مقدونيا، وقتله على يد الملك بطليموس كيرانوس حوالي عام٢٨٠.

نزلتُ عدّة درجات، ماراً أمام قنطرة نصف إسطوانية اكتشفها علماء الآثار الأمريكيون خلال ما بين الحربين العالميّتين، ولمست بخوف شديدٍ عقرباً رمادياً...

ثم إن الوجه العجيب للسلوقي المرتبط بهذه الأمكنة التي غادرها نهر دجلة غاب في سماء بنفسجية خفيفة تاركاً لي عطْر الغياب...

في عمق المنظر كانت ترتعش هالةُ شخصية كبيرة أخرى هي شخصية الإسكندر. كما لو كنت موجوداً في موقع مدينة أوربيس، وهي مدينة قديمة

جداً، غدت مشهورة بعد الدسيسة التي قام بها عساكر المقدونيين سنة ٣٢٤ ق.م فهدّأ الملك التمرُّد، وأبهج رفاقه في السلاح، بما اشتهوه من الطعام، في مأدبة رائعة. ثم راح ينفّذ بهدوء خطّتهُ العظيمة، الباعثة على النشوة، والمليئة بالهزّات: توحيد أوروبا، وآسيا الأخميديين، العالمين اللذين كانا متضادّين حتى ذلك الحين. كان يبغي أن يمزج الشعوب، ويعلّمها الثقافة الهيلينية، مُحترماً عاداتها وتقاليدها. كما كان يتمنى أن يجمع الأوطان تحت صولجانه، ويخلق أوّل نظام ملكيّ عام، يشمل حدود الكون. نظام سيقوم على مفاهيم جديدة. حيث ستحلّ القيم الأخلاقية محلّ صنوف التمييز بين الأعراق واللغات.

كشف لنا بلوتارك النقاب عن مشروع الإسكندر، حيث كتب:

"ما كانت خطّته أن يُخرِّب آسيا كقائد لصوص، وأن يجتاحها، وينهبها كما لو غبطة غير مألوفة كانت قد حلّت، في الخراب والغنيمة... بل كانت إرادتهُ أن يجعل الأرض كلها معمورة، تخضع لقانون العقل، ويكون الناس جميعاً مواطني دولة واحدة، تحقق لهم العدالة حكومة واحدة. ولو أن الإله الأعظم الذي خلق روح الإسكندر في هذه الحياة الدنيا، لم يُنادِهِ إليه فُجأةً، لما كان في المستقبل سوى قانون واحد يحكم بين الأحياء جميعاً، ولكان الكون كلّه محكوماً بعدالة وحيدة، كأنه تحت نور واحد... وتُظهر لنا طريقة قيامه بحملته أنه تصرّف فيلسوف حقيقي، ليس من أجل أن يجني ثرواتٍ وافرة، بل لكي يحقق السلام العالمي، والوفاق والاتحاد بين البشر، ولكي يضمن للناس حُبّ الترابط والتعايش.

(بلوتارك، الحيوانات المتوازية، ترجمة آميوت).

غير أن حلُم الإسكندر الذي كان سيقلب نظام العالم، لم يتحقق، إنه خيال ما يزال ينشب مخالبه في قلوبنا... لقد مات الملك باكراً سنة ٣٢٣ وعمره اثنتان وثلاثون سنة.

كانت سياسة ضباطهِ حريصة على الغزو، والمحافظة على سلطتهم أكثر من حرصها على إرادة خلق النسجام والانصهار بين الشرق والغرب. لكن الحضارات لم تَعُد تتّحد إلا جزئياً، سواء من وجهة نظر جغرافية، أم من وجهة نظر اجتماعية.

وفيما يخص بلاد الرافدين، لم يعد سلوقس بحقّ خطّة الإسكندر، مع أنه كان راغباً بجمع الهيلينين و "البرابرة" في ممارسة السلطة.

ففي مدينة سلوقيا أسندّ الوظائف العليا، والمناصب الرفيعة للمستعمرين، وكلّفهم بالدفاع عن الهيمنة الإغريقية. على حين أن البابليين لم يشاركون في حكم المدينة إلا قليلاً.

فهل قام -مع الزمن- حوار ما بين الشعبين؟ أو بالأحرى، هل عاشا جنباً إلى جنب من دون أن يكون بينهما سوى اتصالات مصطنعة؟

يبدو أن الإغريقيين والمقدونيين احتفظوا بهويتهم الخاصة، وبلغتهم، وأعرافهم الأخلاقية، وخصائصهم الدينية. ولم يُجيدوا لعبة غزاة بلاد الرافدين القُدامى الذين كانوا ينخرطون في نمط حياة البلاد، ويغطسون في النهرين، ويرتاحون تحت أشجار النخيل، ويتشبّعون براحة الأرض الطّيبة، وينصهرون فيها انصهار زخّاتِ مطرٍ ربيعية...

وما كان يمكن أن يبدو أبناء بلاد الرافدين، في عيون أبناء الإسكندر، خشني الطباع، و لا قليلْي التهذيب. إذ لم يكونوا في كثير من الجوانب أقلّ منهم، حتى لو لم يلاحظوا بعد إشعاعات الثقافة الهيلينية.

قبل ثلاثة آلاف عام من وصول الإغريق إلى المسرح العالمي، كان أبناء الرافدين أرسوا دعائم المعرفة ذات السمات العلمية. فأسهموا في تطوير

الزراعة، وابتدعوا نموذج الحياة الحضرية، والكتابة، وتدوين القانون، ووضعوا المبادئ الأساسية لعلم الفلك، وللرياضيات لكي يجدوا حلولاً لمشكلاتهم الملموسة. وتصوّروا أنظمة ترقيم، وحساب، وقياس، واكتشفوا نظرية وتر المثّلث قبل فيثاغورس.

وكان سكان الشرق يتابعون إثارة التساؤل عن عملية الخلق، ونظام الكون، والدور الحاسم للآلهة، ومصير البشر، وسرّ الموت. وكانوا يفسّرون العالم من خلال أساطير لاهبة، ويرونه أصل كل شيء، ويتواصلون معه. وكانوا يصوغون نماذج عُليا. حيث لم يكونوا يحيطون بعد إحاطة كافية بتنظيم منطقي للفكر، مفضّلين الحكمة على العلم، واللامرئي على المجرّد. ومع ذلك فقد توصّلوا إلى "عقلانية" ما.

وأخذ الإغريقيون جملة المعارف التي ابتدعتها الأوطان الحكيمة، كمصر وبلاد الرافدين. فأخصبوها بعبقريتهم الخاصة، حتى إن الفلسفة ذاتها أتتهم من الشرق والهند القديمة.

وإذا كان الفكر الهيليني الصاعد قد ظلّ في الاتجاه العقلي الذي بدأه السومريون، فقد ارتقى شيئاً حتى بلغ العقل المحض، ووصل إلى مستوى معيار الحقيقة. فمنذ القرن السابع قبل الميلاد، حاول هذا الفكر أن يفسر الظواهر الطبيعية، من دون أن يجعل من الصوفية والآلهة مرجعاً لتفسيرهم. وطرح على ذاته سؤال أصل الأشياء، وتركيبها، وصيرورتها.

كان الإغريقيون يبحثون دائماً وراء الصور والأساطير الشرقية القديمة، عن الأفكار، لذا تعاظمت قدرتهم على الاستنتاج. وبعد محاولات كثيرة أصبح برهانهم قائماً أيضاً على الاستقراء، وهو السياق المنطقي للفكر.

كان بعض العلماء يظنون أن الكون شمسي المركز، وأن بنية المادة مركّبة من ذرات منسجمة، غير قابلة للانقسام. ومع ذلك يظّل علمهم في الميادين الأخرى عقائدياً وساذجاً.

كانت الفلسفة الإغريقية متطوّرة، لكن مليئة بالمتناقضات. وكانت بعيدة عن إقناع المفكّرين الرافديين كلّهم، الذين لم يسعوا لإحتضان أفكار السلطات المحتلة وأخلاقها، بل انزووا بدافع من روح المعارضة في مراكزهم الدينية. وأرادوا جميعاً، الناسخون كما الكهنة والصنّاع ورجال الأعمال، أن يحافظوا على ديمومة حياة الثقافة السومرية –الآكادية. ذلك أن هذه الثقافة كانت قد شهدت نهوضاً حقيقياً في عهد آخر الأمراء الأخمينيين.

لذا استمرّت قوانين بلاد الرافدين وأعرافها. وتابع علماء الفلك، العارفين بالطرائق الرياضية الجديدة، رصد حركات النجوم في السماء رصداً دقيقاً، وبتسجيلها على ألواح من الصلصال. وأعدّوا تقويمات فلكية، أي روزنامات وكانوا يتمتعون بسمعةٍ طيّبة ودائمة في هذه المجالات.

كنت ما أزال أتجوّل في العاصمة الأولى للسلوقيين. هبّت ريح كثيفة وثقيلة على الانقاض، ريحُ قادمة من تلك العصور الغابرة، فأزالت الغبار عن الماضي. في ذكرى الكلدانيّ بيروس.

حوالي سنة ٣٠٠ ق.م حاول بيروس، هذا الكاهن للإله مردوخ، أن يكشف للغزاة الهيلينيين تقاليد بلاده، فحرّر باللغة الإغريقية ثلاثة أسفار سمّاها بـ"البابلونيات"، وأهداها للملك انطيوكس سوتير ابن سلوقس. هذه الأسفارالثلاثة كانت تعيد رواية أساطير العالم وقصصه، منذ عهد ملوك ما قبل الطوفان حتى موت الإسكندر، نتيجة ذلك غدا بيروس مشهوراً، إلا أن الإغريق لم يعلّقوا أهمية كبيرة بهذا المؤلّف الذي ضاع أصلاً. وما وصل إلينا منه إلا أجزاء نقلها مؤلفون قدماء.

كانت الريح التي علا هبوبها تحمل الحكمة القديمة لفيلسوفَين وُلدا في مدينة سلوقيا. الأول هو ديوجين الذي رأى النور سنة ٢٤٠ قبل الميلاد،

وخلف زينون الطرسوسي في رئاسة المدرسة الرواقية.

انتشرت الرواقية، المولودة في أثينا سنة ٣٠٠ ق.م انتشاراً سريعاً في الشرق. أوَلم تمرّ الأفكار والبضائع بحرية عبْر حوض البحر الأبيض المتوسط؟

والثاني هو آبولودر السلوقي، الذي كان زميل ديوجين. ألّف كتاباً يتضمن نظرية أخلاقية ونظرية فيزيائية.

اكتسب هذان المفكران شهرة حقيقية في العالم القديم.

يعود إلى هذين الفيلسوفين الرواقيَين، اللذين تذوّقا ثمار بلاد الرافدين الشهية، وإلى إخوانهم القادمين من أصقاع أخرى، فضل متابعة حُلم الإسكندر الذي أهمله سلوقس والديادوقيين: الحلم بإلغاء الحدود الفاصلة بين الشرق والغرب، والمصالحة بين الإغريق والفرس و"البرابرة". أليس البشر – بحسب فلسفتهم – متساوين جميعاً؟ ألا يعيشون تحت أجنحة الهيلينية المبسوطة الواسعة الرحيبة؟.

١٦

إزدهار جديد في بلاد الرافدين

مقابل مدينة سلوقيا، على الضفة اليسرى لنهر دجلة، كانت قطيسفون المعروفة عند العرب بـ"المدائن"، محطة استراحة وتسلية، فيها حديقة واسعة عامرة بالظلال هي حديقة " سلمان – بارك"، ذهبت أتنزّه فيها – مثل كثير من البغداديين – طيلة عطلة نهاية الأسبوع. لم تكن الحديقة بعيدة عني لأنني أسكن حي " عقد النصارى" الواقع شرق النهر.

كانت سيارات النقل وسيارات التاكسي مصطفة على مدخل الموقع. كانت عائلات كاملة تنزل منها وتبحث بعيونها عن القبّة الزرقاء للقبر حيث يرقد "سلمان الفارسي" أحد أولياء الإسلام وشفيع الحلاّقين.

كانت الأشجار التي تحطّ عليها آلاف العصافير المغرِّدة، تهتز طريّة بفرحٍ ربيعي. وكان ينتصب في إطارها الأخضر الزاهي جناح قصر خَرِبٍ يشبه أحد قصور آشور... مزيّناً بأربعة طوابق من النوافذ الاصطناعية المحوطة بالأعمدة، وفي وسطه، إيوان هو عبارة عن قاعة عميقة مفتوحة على أحد الجوانب، وتكللها قبّة على شكل نصف قوس كامل. والإيوان الذي يبلغ ارتفاعه ٣٧ متراً، يرفع صوب السماء حاجباً يملؤه الاعتزاز. كان، بصدره العريض، ينتصب واقفاً من دون سند الأعمدة، يروي مأثرة المعماريين العجيبة ممجّداً ذكاءهم، ومهارتهم الفريدة في العالم.

تقدّمت –بفضول إنسان متواضع– تحت القبّة الهائلة ذات الجدران السميكة. كانت في الماضي تحمي قاعة أبهة مزيّنة بالموازييك. تغطي أرضيتها كاملةً، سجّادة زاهرة، ويتدلى من سقفها تاج ثقيل من الذهب

والحجارة الثمينة، معلّق بجنزير، فوق العرش الملكي المرتكز على منصة. ها هنا كان الملك يتلقى تمجيد رعاياه

خرجت من الصيوان الواسع، وخطوت عدّة خطوات لأتأمّله ملياً، ومررت من الجانب الآخر...

كان قوس الانسجام، رمز الآصرة بين السماء والأرض، مشحوناً بموسيقى قويّة خافتة سمعتها لحظةً في الصمت.

ظلّ ذهني مشدوداً نحو ماضٍ غابر، حيث انبثق فجأة فارس فاخر؛ الملك ميثرايدات، الذي نقش صورته على العملة النقدية (كما في مدينة سلوقيا، السلوقس).

ذات نهار جميل من عام ١٤١ ق.م، دخل العاصمة الشرقية الهيلينية بأُبّهة. ورماة الرماح الشجعان يمتطون خيولهم المسرَّجة، يحملون السلاح، ويليهم رُماة النبال المهرة، بقفطاناتهم، وسراويلهم المزركشة.

وقد اعتُرِفَ به في المدينة، أمام هتافات الجماهير، ملَكاً عظيماً!. ومع ميثرايدات المنحدر من الشعب الفرثي شبه البدوي، ذي الأصل الهندو – إيراني، غصْتُ في زوبعة الأيام الخوالي...

قبل أكثر من مائة عام من ذلك، استقلّ آرساسيز القائد الشجاع عن حكم السلوقيين، وأسس سلالة الآرساسيين. وجاء بعده عدّة ملوك قاتلوا من أجل توسيع أراضيهم واعتمدوا في حكمهم على الارستقراطية العسكرية.

بدءاً من عام ١٦٠، بفضل عبقرية ميثرايدات امتدّت قوة الفرثين لتشمل بلاد فارس، وبابل...

ومن أجل أن يؤمن الملك المعّظم سكَناً لجيوشِه، ويتفادى إزعاج النبلاء الإغريق، أقام – فيما بعد– مخيّماً عسكرياً في قطيسفون، مقابل مدينة سلوقيا. ووصف نفسه في نقشٍ على العملة النقدية، صديقاً للهيلينية "Philhellene".

طوّر الملوك الفرثيون، خلفاء ميثرايدات، هذه الضيعة، وجعلوها مسكنهم الشتويّ، لأن هواءها نقّي. وحلّت قطيسفون في النهاية محل سلوقيا، وغدت العاصمة الإدارية الدائمة لإمبراطورية كانت ممتدّة بين آسيا الصغرى والهندوس.

كانت المدينة المزدهرة والجامعة لأجناس مختلفة، محميّة بأسوار عالية، وبمياه دجلة. وقد هيأ لها موقعها الاستراتيجي أن تُراقب طريقاً هاماً (عُرفت لاحقاً بطريق الحرير)، كانت تربط منطقة البحر الأبيض المتوسط بالصين، مارّة عبر بلاد الرافدين وإيران وآسيا الوسطى.

عام ١٢٤ ق.م حلّتْ في مدينة قطيسفون بعثة صينية، فقام ملك الفرثيين ميثرايدات الثاني معتزاً بإرسال هدايا إلى إمبراطورة الصين (هوني)، وأهدته هي بيضة نعامة رائعة، وعدّة مهرجين مهرة. وطوّر التجارة مع المشرق حيث كانت قوافل التجار تتوقّف في هذا المكان، فتُقايض ديباجها الفاخر، ومنسوجاتها الكَتانية والصوفية، وبهاراتها، ونباتاتها العطرية، ونبيذها والبَرْدي، بالجواهر، والسجاد والسيراميك، والمواد الغذائية. وفي آخر ألنهار ينتشر التجّار في مختلف أحياء قطيسفون، ويشاهدون بإعجاب واجهات المنازل المزّينة بالجصّ، وبالنقيشات الإغريقية ولم يكونوا يصدّقون عيونهم وهم يرون الأبواب تفتح على حدائق عجيبة بأعمدة، مزروعة نخيلاً، وسرواً، ودُراقاً، ورُماناً، يموّج أشجارها الوارفة هواء دافئ تعطّره روائح أشجار نادرة.

كان التجّار المسافرون يكتشفون التنّوع الثقافي الذي كان يحتضن محيط البحر المتوسط والشرق. لقد كانوا يلعبون دور المفاوضين والسّعاة، مثلما كانوا ينشرون الأخبار والأفكار.

في كتابه (مكتبة التاريخ)، يذكر العلاّمة ديودور الصقلّي، إثر رحلة إلى مصر وآسيا في نهاية الحقبة الهيلينية علم الفلكيين والمنجّمين الكلدانيين

الذين كان ما يزال مُشِعّاً، ويعبّر عن ذلك بهذه الكلمات:

"إن للكلدانيين –وهم من أكثر البابليين قِدَماً– في تنظيم الدولة، المكانة التي يحتلها الكهنة في مصر، ولكونهم مخصيين لإقامة الطقوس الإلية، فهم يكرّسون وجودهم كله للفلسفة ويتمتعون بسمعة كبيرة في علم التنجيم".

(ديودور الصقلّي، ولادة الآلهة والبشر، منشورات الآداب الجميلة، باريس، جزء ٢٦، ١٩٩١ ص ١٥٤–١٥٥ ترجمة:م. كازوفيتش).

أبدى ديودور خيبة أمله من مغامرة الأغريقيين في الشرق. وأخذ عليهم تزمُت مدارسهم الفلسفية المشهورة، وتناقضاتها، في مواد المذاهب الأكثر أهمية. واستخلص النتائج الآتية:

"عند الكلدانيين تنتقل الفلسفة عبر العائلة، فالوالد يخلف أباه كونه مُعفى من المهام الاجتماعية كلها. إنهم يتعلّمون مع أهلهم كلّ شيء من دون نقصان، وفي الوقت نفسه فهم جازمون في تعلُم المعرفة الموروثة. ثم إن تغذيتهم منذ الطفولة من الدراسات، تُكسبهم مقدرة أكيدة لأن الشباب يتعلمون بسرعة، ويقفون أنفسهم من أجل المواظبة على العلم، زمناً طويلاً.

أما عند الإغريقيين حيث تتم دراسة مواد كثيرة من دون تحضير، فالميل إلى الفلسفة يأتي متأخراً، وبعد أن يخصّص لها المرء بعض الوقت، تدفعه ضرورات الحياة للابتعاد عنها سريعاً، ويواظب على دراستها بعض الأشخاص ممّن وهبوا أنفسهم للفلسفة كي يؤمنوا لقمة عيشهم، فاتحين دون توقف سُبُلاً جديدة من خلال تفريع المذاهب الأكثر أهمية، من دون متابعة المذاهب السابقة."

(ديودور الصقلّي، المرجع نفسه)

حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد، نهض الرومان في الشرق، في وجه الإمبراطورية الفرثية. كانوا يريدون ضمّ بلاد الرافدين إلى بلادهم، بوصفها مكاناً استراتيجياً واقتصادياً هاماً. كان الصراع عنيفاً، واستمرّ ما يقرب ثلاثمائة عام. وفي عام ١١٦ بعد الميلاد، احتل الإمبراطور طراجان وهو في طريقة إلى الخليج، مدينة قطيسفون، لكنه أضطر للانسحاب منها. وفي سنة ١٩٧ اجتاحها سيبتيم سيفير Septime severe ونهبها وجعلها أكثر دماراً.

وعلى رغم من هذه الصراعات المستمرة، اعتنى الفرثيون عناية خاصة بتجميل بلاد ما بين النهرين حيث كانوا يُقيمون فيها ويوظّفون ثرواتهم، ومواهبهم فيها ويبنون صروحاً مُشرِقة في مدينة سلوقيا، وبابل، وأوروك، ونيبور، وفي غيرها من المدن والقرى الهاجعة.

ونهضت مدينتا نينوى وأربيل، عاصمة مقاطعة حَدياب كشجرتي تفاح في بهاء إزدهارهما.

وكما يرفع ثور رأسه، رفعت مدينة آشور القديمة المقدّسة رأسها باعتزاز إذ كانت مزوّدة بساحة عامة وقصر جديد يُذكر نمط بنائه المعتمد على الإيوانات، بناء مساكن الأمراء الآشوريين الكبيرة. وفي معابدها التي تتخللّها الكوى المملوءة بالتماثيل، كان (المؤمنون) دوماً ما يدعون بحرارة إلى إله آشور، وآلهة الزمن القديم. كان حدثاً تاريخياً أن موجة مفاجئة من التسامح (الذي كان ضعيفاً في ذلك العهد)، فاضت على الأصقاع التي احتلها الفرثيون وأداروها.

فقد تركوا، بذكاء وحكمة، لبعض المقاطعات التابعة لهم أن تشكّل ممالك مثل شاراسين في بلاد الرافدين الدنيا، ومملكة حدْياب وهي بلاد آشور القديمة، ومملكة الأسروهين، حول مدينة إيريس أورفا حيث تطوّرت، في

مُنعطف عصرنا، اللغة السريانية التي هي لهجة آرامية. وكانت نيّة الفرثيين عدم الإفراط في استخدام سلطتهم، لذا سمحوا للإغريق والمقدونيين الذين كانوا يسكنون المدن السلوقية الواقعة تحت سيطرتهم، بأن يحتفظوا بمؤسساتهم، وأعرافهم، وعاداتهم. ولم يسعوا قطّ إلى مسّ تقاليد بلاد ما بين النهرين، بل تركوها تعيش بسلام.

ثم إنّ هذه االدولة الفرثية، المتعددة الآلهة وثنائية اللغة، إذ كانت تتكلم الإغريقية أيضاً، لم تفرض على رعاياها حقيقيةً، أو أخلاقاً، أو ديناً، واحترمت في الإمبراطورية كلّها، حرّيات العبادة، وإبداء الرأي، وممارسة الطقوس.

حتى إن الديانات في بلاد الإغريق، وإيران والجزيرة العربية وسورية، وبلاد الرافدين، مالت إلى التقارب، والتحاور دونما عناء. وانصهرت الشعوب (التي التحق بها فيما بعد من الغرب، الآراميون والعرب) والمؤسسات والثقافات بعضها مع بعضها الآخر.

واختلطت في الفن أساليب الاغريقيين مع اساليب البابليين، مثلما نجد في تمثال المرأة العارية الصغير الفتان المعروض في متحف اللوفر. فهي كالالهة تضع قرنين فوق شعرها المشكول بعناية. ويتدلى قرطان انيقان من أعلى كتفيها المرمريين الناعمين. ويزين عينيها وصرّتها كحل مجلوب من دولة برمانا، وكانت نظرتها القرمزية الحامية ماتزال تلقي بإشعاعاتها كالشموس.

منذ القرن الاول بعد الميلاد ـ قام عالم جديد. فازدهرت الثقافة اليهودية في بابل، واسهمت في ولادة واحد من كتابي التلمود. فالمسيحية اولاً، ثم المانوية، والزرادشتية، ازاحت الاديان القديمة التي لم تكن عقائدية. وقلب وصول الفرس الساسانيين مسرح سياسة بلاد الرافدين. تراجعت الحضارة

السومرية ـ الاكادية القديمة. ومع هذا لم يتوقف نور اكتشافاتها العظيمة عن السطوع في عقول الشرقيين...

وجدت نفسي ـ وعقلي مشدوداً نحو الزمن الغابر ـ امام القوس القرميدي الرائع في قطيسفون، ومن خلال ترابط صور غريب، كان يبدو لي كأنه صدى لقوس الخشب، ولبوق الفرثيين الذين طالما حققوا الانتصار في ساحات الوغى...

اهملت حلمي التاريخي، وتمددت مسترخياً. وسقطت من جديد في معمعة القرن العشرين، يأخذني بعض الذهول...

ها هي فتاة لطيفة ناعسة، كأنها خارجة من مُنَمْنمة، شعرها كستنائي مضفور، حوله رباط من الحرير معقود خلف الرأس، مرت قربي وهي تركب ظهر جمل ولامستني. كانت تلبس ثوباً موشى وكان جملها الذي يقود عنانه عربي شديد البأس يلبس ثوباً حليبي اللون، وسترة قصيرة لا لون لها، يسير على خطى جمله بهيئة المذعن، ينوس عنقه المزين بالخرز، ويتراقص بحركات رتيبة. للحظة لاحقت بعيني هذا الظهور الساحر، لكنها توارت تحت اشجار النخيل التي يعلو منها طنين الحشرات، حيث كانت مجموعة من اهالي بغداد يأكلون الطعام ساعة الظهيرة...

وعلى مقربة من القوس انتصبت خيمة كبيرة من شعر الماعز. ودخلتها لأرتاح ولآخذ دور البدوي، جلست على الطرّاحات المفروشة على الارض كالسجاجيد المنسوجة. طلبت فنجاناً من القهوة الكثيفة جداً، قبالتي، كان عجوزان بلحيتين قصيرتين بيضاوين يتحدثان. وكان في يد كل منهما مسبحة تطقطق بحباتها المنزلقة.

رشفت قهوتي ببطء مفكراً بتاريخ قطيسفون الآسر، حيث كانت تعج بالتجار، وبرماة النبال الشجعان الذين يجيدون حيلة الفَرْ كالسهام المارقة

بسرعة البرق، وببيارق من الحرير الاسطورية الخافقة في سماء المعارك، والمصحوبة، من دون ريب، الى العاصمة لتكون محفوظة بعناية واهتمام، وكان قوام هذه المدينة ايضاً بهاء، ورفعة، ورحمة لطيفة، وحب.

إنها تخاطبني في نهاية القرن العشرين هذه التي غالباً ما يسودها عدم التسامح والخوف، والعنف، وتصاعد مذاهب الطغيان، والانظمة الدكتاتورية، والتزمت الديني، التي تهدد الحرية واستمرار المجتمعات الحديثة.

١٧

نَفْخَةُ بِلاد الرافِدين

يا بلاد الرافدين، البعيدة القريبة، الغامضة الأليفة. ماطبيعة الاعتزاز الذي رافق تفكيري فيك؟ فأنا ما كنت أراك بحسب اعراف الانسانيين الغربيين الذين يبحثون عن شرقهم، ويرجعون دوماً الى العهد القديم واليونان، وروما، لأن زرقة سماواتهم ليست هي زرقة سماواتي، لقد كنت اتأملك بعيني، عيني ابنك، ووريثك الشرعي، بعيني الصباحيتين.

في حديقتك الفردوسية التي يسقيها ينبوع من ماء عذب، كان يعيش آدم، الأرضي، وحواء "المخلوقة من الضلع" التي تهب الحياة. يا بلاد الالهة والابطال والامراء الذين كانوا يحملون ترس العالم القديم: احياناً كان أحد هؤلاء يأتي ويسكنني كأنه عبقرية طيبة.

أيتّها الارض الخصبة حيث كانت تجري الجعة، والزيت، والعسل، وحيث كانت الريح تعزف كناراتها. ومثلما ان الثور يحاذي السنبلة، والقصب يحاذي النخيل، كذلك كانت المغامرة تقارب المأساة والحلم يقارب الواقع.

خلال عام كامل. حملت ـ أنا حاج الماضي ـ العصا، ورحت اتجول على دروبك. زرت مواقعك الرئيسة، وزقوراتك المنتصبة كأنها اشباح من القرميد. يا لها من صدمة اكتشفت! زفرت مع صوت الهواء اسفاً وانا أرى الاثار المشوهة والباعثة على الخيبة لعواصمك المتينة في الجنوب والشمال، تعاني احياناًمن التشوهات، وتبعث احياناً اخرى على الخيبة، فبدأ يتولد في قلبي، ضمن هذه الخرائب، شعور وطني عارم.

لقد حفظ العشب الكثيف، والازهار البرية النامية وسط الحطام، والهواء

العاطر، وفلول الطيور، الشهادة على روعة الايام الغابرة، وعلى عظمة ملوكها.

حاولت، وقد غمرتني موجة نسغ وحياة، ان أبني، في داخلي، من جديد، قرميدةً قرميدة، تلك المدن الجريحة، المحمرّة، الاكثر خلاء من المسارح عند مطلع الفجر، وان أغير معالمها من خلال طرق المعرفة والخيال، فتغدو عوالم مخلوقة مجازياً من جديد...

ألم تكن تلك الرحلة الى بلاد الرافدين، رحلةً في اعماق ذاتي لاكتشاف أقاصي روحي؟ إذ بحثت عن إجابات على الاف التساؤلات عن معنى الحياة. وهذه الانطباعات، المكتوبة يوماِ بيوم، تشكل، بطريقتها، مذكرات قبطان سفينة.

تركت لي الجولة وعداً بالامتلاء السعيد. فكم بقي من اصقاع للاكتشاف، ومن مدن للكشف، ومن فواكه للتذوق!ذلك ان الاثار المنبوشة لا تمثل إلا بعض الانغام الضائعة كقطرات من الماء في محيط الموسيقى!

بدا لي، في نهاية رحلتي، أنني كنت ارتقي ببطء سلم زقورة هائلة لكي ألتَحق بالفجر الأبدي. وتأملت المنظر حولي يستحم بنور وردي.

كان نهرا دجلة والفرات، الجليلان جلال الاساطير، يجريان، بلونهما القاتم كالحبر، يمران في عمق الوادي. فأي سحر لم يكن يتفجر من عمقهاالكبير؟ لقد كانا الطريقين المرتعشتين لكل ذاكرة، جريانهما السريع كان يأخذ في طريقه الاحياء والاموات. سمعت ضجيجهما المحبب الخالد.

ها هنا بدأ تاريخ الانسان الطويل ومقابل الفوضى. كان السومريون، ثم الاكاديّون، أول من نظم الحياة على الارض. حيث طوروا حضارة متشعبة، ومنسجمة رفيعة المستوى، ونقلوها الى البابليين والآشوريين، وفيما بعد، وعبر الهيلينيين الى السريان والعرب والغرب. وقد عشت تواً ربيع هذا التاريخ.

ومع اجدادي الذين ظلوا جميعاً في لحن بلاد الرافدين العذب، كنت اشارك في سمفونية التجديد. عديدة هي الاواصر التي ما تزال تربطني بهم: الهواء، واليمامات، والتراث المملوء بالذخائر، واللغة، والثقافة الاراميتان، والاخلاق والاعراف، ورؤية العالم القريبة مما هو جوهري.

ان ما لدى من شجاعة واعتزاز، موروث عن هؤلاء الاجداد، كما تخيلتهم في شبابي. واذا اخترت ان اعود إليهم، فليست غايتي ان ألوذ بماضٍ انقضى، بل اخترت العودة هذه لأنني مفتون بعقلهم الخلاق، والحيوي، إذ كانوا يبنون مصيرهم بأيديهم وينطلقوا الى الامام.

ولما كنت ضعيفاً وفانياً، وشديد التعلق بالكائنات، والأشياء، ولذائذ الحياة على هذه الارض، احرقتني الرغبة في ان اجاوز نفسي، وان أذوق طعم الاستقرار في وحدة ذاتي، وكنت ابغي، بكل ما أوتيت من قواي الواهنة، ان أكمل نسيج ثقافة عمرها خمسة آلاف عام.

GLOSSAIRE

العباسيون: سلالة عربية مشهورة حكم خلفاؤها، السبعة والثلاثون، في بغداد خلال الفترة ٧٥٠_١٢٥٨م.

الأخمينيون: سلالة فارسية حكمت الامبراطورية من القرن السادس قبل الميلاد حتى عام ٣٣٠ بعد الميلاد. وفي عام ٥٣٩ ق.م احتل الملك كورش بابل، وحكم بلاد الرافدين.

الأكاديون: شعب سامي من الجزء الشمالي لبلاد الرافدين.

العموريون: شعب سامي، نصف بدوي، استقر في بلاد العموريين وهي واحة في سوريا العليا. وفي العام ١٩٠٠ ق.م . ثبتوا اقدامهم في بلاد الرافدين، وأسسوا اول سلالة في بابل (١٨٩٤_١٥٩٥).

الآراميون: شعب سامي، تواجد في سورية، وفلسطين، وبلاد الرافدين العليا. وفي القرن العاشر شكّل الاراميون ممالك كمملكة دمشق، فأخضعتها آشوريا في القرن الثامن. وغَدت لغتهم اللغة الاولى في إمبراطورية الأخمينيين.

الاشوريون: شعب سامي سكن بلاد آشور في بلاد الرافدين العليا. وأسس الاشوريون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إمبراطورية عظمى حكمها الملك شمشي ـ آداد الاول.

الكلدانيون: شعب سامي، قريب من الاراميين، استقر في بلاد سومر حوالي سنة ١٠٠٠ق.م. وأسس الامبراطورية الكلدانية او البابلية الجديدة التي برق نجمها في القرن السادس.

الميديون: شعب إيراني تأكد حضوره منذ بداية حكم الاشوري سلمانصر الثالث (٨٥٨–٨٢٥ق.م)، إذ استولى الملك سياكسار على آشور سنة ٦٢٤، وعلى نينيف سنة ٦١٢، وساعده البابليون في ذلك.

الفرثيون: شعب قديم سكن شمال غرب إيران، وأسس حوالي سنة ٢٥٠ق.م سلالةً مستقلة هي سلالة الارساشيديين. وغزا هؤلاء بابل في عهد السلوقيين. وفي عام ٢٢٤ بعد الميلاد، انهزم آخر ملوكهم امام الساسانيين.

الساسانيون: سلالة فارسية حكمت من ٢٢٤ حتى ٦٥١ بعد الميلاد. قاومت البيزنطيين، لكنها انهزمت امام العرب.

السلوقيون: سلالة هيلينية أسسها سلوقس نيكاتور. حكمت اسيا من ٣١٢ حتى ٦٤ق.م.

إشارات تاريخية عن بلاد الرافدين

القرن الخامس والرابع قبل الميلاد: استقر السومريون والساموين واعراق اخرى في بلاد الرافدين. عرفت في ذلك العصر صناعة الخزف، وتربية الحيوان، والزراعة، والتجارة، وصناعة النسيج.

عصر اوروك: من ٣٧٥٠-٣١٥٠ ولادة المدن.

العصر التاريخي: حوالي عام ٣٢٠٠ اختراع الكتابة.

الملكية القديمة: حوالي ٢٩٠٠- ٢٣٣٤ جلجامش ملك اوروك. مقبرة أور.

إمبراطورية أكاد: حوالي ٢٣٣٤-٢١٠٠ سرجون يؤسس سلالة أكاد. حكم ناران سين. هيمنة اللغة الاكادية.

سلالة أور الثالثة: حوالي ٢١١٢- ٢٠٠٤: حكم أور- نامو وشولجي، وإيبي - سين.

العصر البابلي القديم: ٢٠٠٠- ١٥٩٥: حمورابي وقانونه الحقوقي.

العصر الاشوري الوسيط: ١٥٩٤-١٠٠٠: آشوريا تثبت قوتها. آشور أوبالي الاول. وسلمانصر الاول.

العصر الاشوري الحديث: ١٠٠٠-٦١٢: حكم آشور نصربال الثاني: وسرجون الثاني، وسنحاريب، سقونينيف سنة ٦١٢ق.م.

العصر البابلي الحديث: ٦١٢-٥٣٩ق.م. نبوخذ نصر الثاني: والسلالة الكلدانية. عام ٥٣٩ احتلال بابل.

العصر الفارسي الاخميني: ٥٣٩-٣٣٠ق.م: كورش الاكبر.

العصر السلوقي: ٣٢٣-٦٤ق.م سلوقس الاول.

العصر البارثي: ١٣٠ق.م، ٢٢٤ بعد الميلاد: حكم ميثرايدات. نهوض المدن الجديد مثل آشور أو نينيف.

العصر الساساني: ٢٢٦-٦٥١ بعد الميلاد، شهبور الاول.

العصر العربي: ٦٣٧-١٢٥٨ الأمويون والعباسيون.

العصر المغولي: ١٢٥٨-١٥٣٤.

العصر العثماني: ١٥٣٤-١٩١٧.

العصر الحديث: احتلال العراق، والانتداب البريطاني.

استقلال العراق: ١٩٣٢.

ملاحظة: تواريخ العصور السحيقة تواريخ تقريبية.

الفهرست